{ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }

الحوار في السيرة النبوية

الكتاب : الحوار في السيرة النبوية
{ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }
المؤلف : د. مصطفى عطية
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٥
رقم الإيداع : ١٧٢٣٦ / ٢٠١٤
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 176 - 5

الناشر
شمس للنشر و الإعلام
٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة . الهضبة الوسطى. المقطم . القاهرة
ت فاكس ٢٧٢٧٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net



{ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }

الحوار في السيرة النبوية

د. مصطفى عطية جمعة

الإهــداء

إلى والـديّ

قال تعالى:

{ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ
وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً }

محتوى الكتاب

مقدمة

ليس الحوار مجرد وسيلة تخاطب نحتاجها في حياتنا اليومية، للاتصال والتواصل مع الآخرين، لقضاء حاجاتنا الاجتماعية والنفسية والإدراكية، إنما هو منهج في الحياة، منهج متسع يتجاوز اليومي إلى طريقة التفكير والمناقشة العميقة.

نحتاج إلى الحوار - بوصفه منهجًا في الطرح الفكري والتبادل الثقافي - في عالمنا المعاصر، فنريد أن نتحاور - نحن المسلمون - مع أهل الديانات السماوية ومختلف الشعوب والحضارات، تحاور المثاقفة، والمناقشة، والإثراء المتبادل، فلدينا رصيد ضخم من المعرفة والقيم والطرح الحضاري الذي يحتاجه الآخرون، مثلما نحن في حاجة إلى التعرف على منجزاتهم الفكرية والحضارية والإنسانية.

إن انعدام الحوار بين الأُمم مشكلة يعانيها عالمنا المعاصر، رغم كل دعوات المحاورة والتبادل المعرفي والثقافي، فكل مظاهر التعصب والتطرف الفكري، والغلو في الخصومة التي نراها منذ عقود، عائدة إلى تبني وجهة نظر واحدة، وعدم الاستعداد لقبول وجهات النظر الأخرى، والتعرف عليها ولو من باب المعرفة في مستوياتها الأدنى؛ وهذا يعود إلى تصور البعض أنه مركز العالم، وأن حضارته صانعة التاريخ، والتاريخ يدور وفقًا لقيمهم هم، ووفقًا لتصوراتهم هم، وهذا ما رفضه المفكرون المستقلون المحايدون في العالم، ونادوا بتعدد الحضارات، وتعدد الثقافات، وقبول الآخر. وقد ظهرت العديد من الكتب التي تثبت أن المركزيات الفكرية في العالم سقطت، وسقطت أيديولوجيتها الفكرية التي تجمدت حول ذواتهم، فظنوا أنهم - وحدهم - مُلَّاك الحقيقة المطلقة.

ولعل أبرز ما تناول قضية "سقوط المركزيات الثقافية"، كتاب "ما بعد المركزية الأوروبية" [١] وخلاصة بحوثه: أنه لا يمكن أن نفهم تاريخ العالم وثقافته في ضوء القياس على التاريخ الأوروبي وثقافته فقط بل يجب إبعاد الهيمنة الثقافية

١) ما بعد المركزية الأوروبية، بيتر جران، ترجمة : عاطف أحمد، إبراهيم فتحي، محمود ماجد. نشر : المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.

الغربية، والتحاور الموضوعي مع مختلف أيديولوجيات العالم وعقائده، فكل مجتمع له ثقافته النابعة من معتقداته وتكوينه التاريخي والاجتماعي على مر العصور.

ويأتي كتاب "الشرق المتخيل: رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي" ليوضح الإشكالية الأساسية في منظور الغرب إلى المجتمع المسلم، فالنظرة الغربية لا تزال خاضعة لموروث تاريخي عائد إلى أيام الحروب الصليبية، وكيف كان العَداء مستعرًا بين تحريض الكنيسة الكاثوليكية أوروبا ضد الإسلام والمسلمين، ومن ثم تطورت الصورة إلى أن يكون المسلم في الوجدان الجمعي الغربي شريرًا، فالمسلم: يُلقَّب بالمحمدي (في إشارة جلية إلى أن رسالة الإسلام من وضع الرسول محمد وليست منزلة من الله تعالى) وهو شهواني، ضال، مفتون بجنات تعج باللذائذ الحسية فيه صورة سلبية فظة [٢]، وهي صورة ينكرها علماء الغرب المحايدون، ويرون أن هذه الصورة ناتجة عن تشويه متعمد وسوء نية، ورغبة في عدم التعرف على الآخر [٣]، وليست لديهم أي صورة عن كون الإسلام قد: "فتح طريق الديانة التوحيدية الأصدق والأطهر. فالإسلام، لا بل الإسلام المنتصر، لا ينقصه شيء مما تحسد عليه المسيحية، هذه الديانة التي تقدس الألم والإذلال والهزيمة (صلب المسيح) أكثر ما ذهب إليه (يقصد الإسلام) أنه ينكر على المسيح صفة الألوهية"[٤] وقد شعرت الطوائف المسيحية بالحرية في ظل حكم المسلمين ومارست شعائرها في مناخ متسامح، وعاشت حياة طيبة، وتشكلت عقول أتباعها بثقافة المسلمين، وهذا كان مجهولاً في الغرب [٥].

---

٢) انظر : الشرق المتخيل : رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي، تييري هنتش، ترجمة : غازي برو وخليل أحمد خليل، منشورات : المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٩١- ٩٣. ويسمي المؤلف صورة المسلمين في اللاوعي الجمعي الغربي "صورة الهرطقة"، ويدين بشدة هذه الصورة المتخيلة.

٣) المرجع السابق، ص٩٤. ومن هؤلاء العلماء : نورمان دانييل في كتابه " الإسلام والغرب "،و يواكيم مبارك، وماكسيم رودنسون.

٤) المرجع السابق، ص٧١.

٥) انظر : السابق، ص٧٢، ٧٣.

من هنا يكون الحوار هو السبيل الوحيد بين أبناء الحضارات والثقافات المختلفة للتلاقي المعرفي وفهم الآخر، وهذا ما تسعى إليه هذه الدراسة؛ أن ندرس ثقافة الحوار في ديننا الإسلامي الحنيف. إنها دراسة تنطلق من المعطيات المعرفية للحوار: لغويًا وفلسفيًا واجتماعيًا وعلميًا، وتسعى إلى قراءة السيرة النبوية العطرة، والأحاديث النبوية الشريفة التي اعتمدت الحوار وسيلة ومصدرًا معرفيًا أساسيًا في الدعوة ونشر الإسلام. فلم يكن الرسول ﷺ فيلسوفًا يناقش قضايا نظرية بحتة، بل هو مبعوث من الله تعالى إلى البشرية جمعاء، بالقرآن، والتوحيد، وهو مُرّبٍ لأصحابه، مُهذِّب لسلوكهم، جعل حياته: ليلاً ونهارًا، سِلمًا وجهادًا، وسيلة للتحاور بين الناس، وتعريفهم بدينهم، وترسيخ قيم العقيدة ومفاهيم الشريعة في أعماقهم، وتحبيبهم في الخير.

في ضوء هذا الهدف، جاءت خطة الدراسة موزعة على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: يتناول مفهوم الحوار بوصفه إطارًا معرفيًا، وآلية في التلاقي بين العقول، وقد سعى المؤلف إلى تعميق هذا المنطلق من خلال التعميق اللغوي ثم الفلسفي والفكري للحوار، في ضوء معطيات علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاتصال، وهي علوم معاصرة، سعت إلى استقراء الحوار بشكل شامل.

كما تطرق المؤلف إلى التفرقة بين الحوار والجدل والجدال والمراء، وكيف تناول القرآن الكريم الحوار، ثم أخص ما تميز به أسلوب الرسول لغة وتراكيب وبناءً، وهو ما تميز به الرسول وجعل أسلوبه سهلاً ممتنعًا، يقتبسه الأديب، ويحتج به اللغوي، ويستشهد به الفقيه، ولا عجب أن يكون المصدر الثاني للشريعة الإسلامية السمحاء، ووثيقة صانعة لثقافة الأمة المسلمة.

الفصل الثاني: وقد تناول المؤلف فيه أشكال الحوار وبنيته في الأحاديث النبوية وهي أشكال متعددة شملت: الكلام باستخدام الجوارح، والحدث والتعليق عليه، والقصة، والمواقف الحياتية المختلفة. وسعى المؤلف من خلاله إلى حصر أشكال الحوار النبوي، وكيف أن المتحكم في تكوين كل شكل هو: غرض الرسول، ثم الموقف الذي تطلب أن يتكون هذا الشكل.

الفصل الثالث: ويتناول أبرز فئات المجتمع والشخصيات التي حاورها الرسول ﷺ في مسيرة دعوته، ولم يكن الهدف في هذا الفصل الحصر لمختلف الفئات، بقدر ما هو التركيز على أسلوب الرسول في دعوتهم والحوار، وطريقته في تناول القضية الواحدة بجوانب متعددة، حسب مستويات المخاطبين والمتناقشين معه، فجاء الحوار مع: المشركين، والبسطاء، وحول تقلبات النفس المسلمة في الحياة.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف اعتمد منهجين في هذه الدراسة، الأول: المنهج الاستردادي التاريخي للآيات القرآنية المعنية ولأحداث السيرة النبوية وأحاديث الرسول ﷺ. والثاني: المنهج التحليلي العقلي في التأمل والتفكر مع الربط بخصائص النفس الإنسانية بشكل عام. كما كان المؤلف معنيًا – بالدرجة الأولى – في تناوله الأحاديث الشريفة، وأحداث السيرة النبوية من منظور شامل للأبعاد: اللغوية والجمالية والإسلامية والفكرية والاجتماعية، ومحاولة قراءة الإشارات المختلفة في الحديث الشريف، من أجل إيضاح المنهج الحواري الذي اتبعه الرسول محمد ﷺ. أما اختيار الأحاديث الشريفة، فقد سعى المؤلف إلى الاعتماد على كتب صحاح السنة الأساسية والمتفق عليها بين العلماء والمحدّثين، دون الإشارة إلى تعدد المصادر والروايات التي ذكرت الحديث أو النص، فقد اكتفى النص لفظًا من مصدر واحد صحيح السند. وقد اعتمد أيضًا تكرار اسم المصدر، ورقم الحديث والكتاب الذي جاء فيه ضمن كتاب الصحيح، في كل إشارة مرجعية؛ لمزيد من التوثيق، وكان الحاكم في استشهاداته أن تكون معبرة أشد التعبير عما يطرحه في جزئيات البحث.

وختامًا، أدعو الله تعالى أن يجعل هذه الدراسة في ميزان حسناتي وأن يغفر ما زللت فيها، فهي من لوازم الجهد البشري؛ وأن تكون جزءا من دراسات وتراكم معرفي يقدّم هدي النبي الأعظم ﷺ ومقولاته ونصوصه لتسترشد به الإنسانية جمعاء، فما أحوجها إلى هذا الهدي المنير !.



الفصل الأول

الحوار: المفهوم والمنهج

المبحث الأول

الحوار في اللغة والقرآن الكريم

▪ "الحوار" لُغةً:

يشير التعريف اللغوي للجذر "حَورَ" إلى دلالات عدة منها: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، وهي دلالة تقترب من دلالة لفظة "حوار" التي تدل على: التحادث والتجاوب القولي، فالمحاورة: المجاوبة، واستحاره: استنطقه[٦]، والمحاورة: حسن الحوار ومنها أيضًا: كلّمتُه فما ردّ على محورةٍ (أي كلام)[٧]، فهي تعطي في طياتها دلالة خلقية تتعلق بكيفية الحوار وأدبه، وهذا صحيح فالحوار يستلزم طرفين أو أكثر، ولا يتم إلا في جو أدبي يتيح السمع والقول بين المتحاورين. وتتسع دلالة الحوار معجميًا فتكون بمعنى: جادله [٨]، والجدال يعطي فرصة للقول والمراجعة بين المتحاورين.

ومن هنا فإن دلالة الجذر اللغوي "حور" بمعنى الرجوع، تتفق كثيرًا مع دلالة الحوار، وإن كانت الأولى أعمّ وأشمل للأشياء والبشر، أما الثانية فهي تقتصر على الحوار بين البشر غالبًا، فالرجوع عن الشيء وإلى الشيء، يدخل ضمن معطيات الحوار، فالحوار يعطي الفرصة لتعديل الرأي والرجوع عن مواقف وأمور، وهذا ما أشارت إليه المعاجم اللغوية فـ"حوّر الكلام أي غيّره"[٩] والتغيير يكون تبعًا لمستجدات في العقل أو الحياة أو الأشياء وهذا يعني الرجوع أيضًا، وأيضًا "والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة وهم يتحاورون أي

---

٦) لسان العرب، ابن منظور، إعداد : يوسف خياط، نديم مرعشلي، دار صادر، ودار لسان العرب، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ج١، ص٧٥٠.
٧) أساس البلاغة، الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر، تحقيق : عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ص٩٨.
٨) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٣، دون تاريخ، ج١، ص٢١٢.
٩) السابق، ص٢١٢.

يتراجعون الكلام" [١٠]، وأيضًا "ما أحار جوابًا أي ما رجع" [١١]، وكذلك: "تحاوروا تراجعوا الكلام بينهم"[١٢]، وأيضًا ومن معاني الجذر اللغوي "حور" ما يفيد الحيرة من "حار" بدلالة "لم يهتد لسبيله، فهو حيران وحائر وهي حيراء" [١٣] فهو يعطي دلالة مناقضة فليس كل حوار يأتي بالجديد، فقد يزيد المرء ضلالاً.

والحوار حقيقة مجتمعية إنسانية، فأينما وجد المجتمع البشري، وجد الحوار، لأن اللغة قاسم مشترك بين البشر، ومن وظائف اللغة التعبير عن حاجات الإنسان، البسيطة المتصلة بحاجاته الإنسانية من طعام وشراب وغيرهما، أو في المستويات العليا من النقاش الفكري والديني والاجتماعي. فالحوار "حديث يدور بين اثنين على الأقل ويتناول شتى الموضوعات... ويفترض فيه الإبانة عن المواقف والكشف عن خبايا النفس"[١٤]، ومن هنا، انتقل الحوار إلى ما ينتجه العقل البشري من آداب وحكمة ونصوص[١٥]، ذلك أن الأدب صورة وانعكاس بشكل مباشر أو غير مباشر من النشاط الإنساني العقلي واللغوي والاجتماعي يكاد يكون الحوار قاسمًا مشتركًا بين سائر الأشكال الأدبية مثل: المسرحية والقصة والرواية والمناظرة والمناصحة والحكمة والعظة وأيضًا في الشعر فهناك الكثير من القصائد التي تشمل الشكل القصصي الحواري، وهناك حوار شعري يكون بين الشعراء أنفسهم.

---

١٠) لسان العرب، مرجع سابق، ج١، ص٧٥٠. وجاء في دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي،دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٩٧١م، مج٣، ص٦٤٧ " تحاور الناس: تراجعوا الكلام وتداولوه ".

١١) أساس البلاغة، مرجع سابق، ص٩٨.

١٢) المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص٢١٢.

١٣) القاموس المحيط ، الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ص٤٨٨.

١٤) المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة أولى، ١٩٧٩م، ص١٠٠.

١٥) كذلك يمكن أن يكون الحوار بين الأديب (منشيء النص) ونفسه، أو من ينزله مقام نفسه مثل ملهمه أو شخصية خيالية، وعموما فإن الحوار أسلوب طاغ وشائع في المسرحيات والروايات وغيرها. المرجع السابق، ص١٠٠.

▪ "الحوار" في القرآن الكريم:

في القرآن الكريم الكثير من الآيات ذات الشكل الحواري، التي تزخر بعديد من الدلالات، ولكننا سنتوقف عند الآيات التي أوردت لفظة "حوار"، وهي ثلاث آيات فقط، إلا تعطي إيحاءات تقترب من الطابع الشمولي لدلالة الحوار إنسانيًا ودعويًا ومنهجيًا. الآية الأولى قوله جلَّ شأنه: { **وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً** } [١٦].

والآية الثانية قوله تعالى في نفس السورة ونفس القصة القرآنية: { **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً** }[١٧].

والآية الثالثة قوله تبارك وتعالى: { **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** } [١٨].

وردت الآيتان الأوليان في سياق قصة قرآنية تدور بين شخصين: مؤمن وكافر والخطاب القرآني موجه في مطلع القصة إلى الرسول محمد ﷺ: {**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً**}[١٩] ، أي: "اضرب يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه"[٢٠]، فالقصة - شأن القرآن الكريم كله - خطاب قرآني من الله جل وعلا إلى نبيه الكريم ﷺ، ولكن الدلالة هنا دلالة "المَثَل" للعظة والعبرة، والقصة موجهة للمؤمنين والكافرين والفاسقين والزائغين عن الهدى، في كل زمان ومكان، ففي طياتها الحوار بين الله ورسوله، وبين الله وعباده، وبين الرسول وجماعة المؤمنين، وبين الرسول والكفار والعُصاة.

---

١٦) سورة الكهف، الآية (٣٤).
١٧) سورة الكهف، الآية (٣٧).
١٨) سورة المجادلة، الآية (١).
١٩) سورة الكهف، الآية (٣٢).
٢٠) جامع البيان في أحكام القرآن (تفسير الطبري)، الطبري، أبو جعفر محمد ابن جرير، دار الحديث، القاهرة، دون طبعة، دون تاريخ، مج٨، ج١٥، ص١٦٠.

وموجز القصة أن الله عزَّ شأنه أنعم على عبد من عباده ببستانين من أعناب، محفوفة بنخيل، وأنبت بين شجرهما زرعًا، أي أن حديقة الكافر متعددة الخيرات والثمار، بينما ظلَّ المؤمن على قلة في المال والولد والعطاء [٢١]، فتباهى الكافر بالمال والولد والجاه والنفر، وكفر بالله تعالى الخالق الرازق، وأنكر البعث يوم القيامة، وقد تمَّ حوار بين المؤمن والكافر، { **فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً** } فالكافر يحاور المؤمن مغترا بجاهه وماله ونفره وولده، فقد جاءت لفظة الحوار حاملة دلالة البوح بالفخر والكبر، مفصحة عما يجول في نفس الكافر، وما يعتمل في صدره وهو يرى الثمر محصَدًا، موفورا، غزيرا، إنها لحظة اغترار الذات الكافرة؛ بالرزق الوفير، فجاء رد صاحبه المؤمن { **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً** } جاء حوار المؤمن هادئًا، بصيغة الاستفهام "أكفرتَ" الدال على التعجب والاستنكار، مذكِّرًا الكافر بأصله البسيط التافه: "تراب" و" نطفة"، ثم صار رجلاً مكتمل البدن والعقل والنفس والرزق، وما ذكره المؤمن عقلاني يتفق مع بديهيات التصور البشري للإنسان؛ فهو يذكِّر الكافر بأصله في الخلق، وإلى ما يشترك فيه مع سائر البشر جميعًا الذين هم خلق الله تعالى، وأن ما تميز به من رزق فهو عطاء الله تعالى ومنّته عليه.

فلفظة "يحاوره" في كلتا الآيتين، حملت الدلالة المعجمية وهي: يراجعه في الكلام ويجاوبه [٢٢] وأيضًا بمعنى "يخاطبه ويكلمه" [٢٣]. ولكنها في الآية الأولى زادت فيها دلالة البوح والإفصاح بالفخر والتكبر على المؤمن، ونسبة ما أنعم الله

---

٢١) اختلف في اسم هذين الرجلين وأصلهما : فقال الكلبي : نزلت في أخوين من أهل مكة مخزومين أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة زوج أم سلمة رضي الله عنهما، والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في الصافات، ورث كل واحد أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدهما ماله في سبيل الله وطلب من أخيه شيئا فرفض الأخ، وقيل نزلت في النبي ﷺ وأهل مكة، وقيل هو مثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر. راجع : تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، مج٥، ص١٠٠.

٢٢) السابق، مج٥، ص١٠٠،

٢٣) تفسير الطبري، ج١٥، ص١٦٢.

به عليه إلى نفسه، وهذا ما أكده ابن كثير "أي يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس"[٢٤]، أما دلالة لفظة "حاوره" الثانية في خطاب المؤمن فهي مخصصة بدلالة النقاش والوعظ، وكما يؤكد ابن كثير فقد جاء اللفظ "مخبرًا عما أجابه به صاحبه المؤمن، واعظًا له، وزاجرًا عما هو فيه من الكفر بالله والاعتزاز"[٢٥].

وبنظرة شمولية إلى القصة التي وردت فيها اللفظتان، نجد أنها تقدِّم قالبًا حواريًا، دعويًا، بين طرفي النقيض في المجتمع البشري؛ المؤمن بالله: الخالق الرازق المعطي، الموقن بعقاب الله النازل بالكافر، وإن تأخر قليلاً، وبين الكافر المغتر بما أفاء الله عليه، ويظن أن ما عنده إنما هو بذكائه، وجهده فقط، فكفر بالله وبالحساب. وقد جاءت لفظة "ثمر" بدلالة أكثر شمولية فهي تعني: "المال الكثير وصنوف الأموال"[٢٦]، ذلك أن الثمار المزروعة مجلبة للمال ومتاع الدنيا، كما أن الثمار زاهية اللون، بكثرتها وتنوعها، تغري النفس، وتطمع العين فيها، فتباهي النفس بشجرها وأرضها وتنسب الخير لصاحبها.

جاءت لفظة "حوار" في موضع ثالث، في مفتتح سورة المجادلة، وعند النظر لاسم السورة، نرى كيف أنها في عنوانها ومناسبة نزولها، تحمل الحوارية منذ مفتتحها[٢٧]، فهي تتناول حوار امرأة من الأنصار مع الرسول ﷺ ومراجعتها في الكلام له وتكاد تقترب دلالة اسم السورة مع المحاورة في قوله تعالى {**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**}، والآيات ترتبط بحادثة بعينها تخص خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بنت الصامت[٢٨] وقد أراد زوجها مواقعتها يومًا فأبت فغضب عليها، وظاهر منها،

---

٢٤) تفسير القرآن العظيم، (تفسير ابن كثير)، للإمام ابن الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، المكتب الجامعي الحديث، الأسكندرية، مصر، دون طبعة، دون تاريخ، مج٣، ص٩٧.

٢٥) السابق، مج٣، ص٩٨.

٢٦) تفسير الطبري، ج١٥، ص١٦١.

٢٧) المجادلة بفتح الدال تعني المحاورة، وبالكسر تعني المرأة المحاورة. والجدال القدرة على الحوار والمراجعة، القاموس المحيط، مرجع سابق ص١٢٦١، ولا يقصد به الجدال العقيم الذي لا يفيد العقول، بل يفسدها ويشتت القلوب.

٢٨) اختلف أهل العلم في اسمها ونسبها، فقال بعضهم خولة بنت ثعلبة، وقال بعضهم : خويلة بنت خويلد، وقال آخرون خويلة بنت الصامت، وقال آخرون خويلة ابنة الدليج. راجع : تفسير الطبري، مرجع سابق، مج١٢، ج٢٨، ص٢. وقيل خولة بنت حكيم، وقيل اسمها جميلة، وخولة أصح، وزوجها أوس أخو عبادة بن الصامت، تفسير القرطبي، مرجع سابق، مج٩، ج١٧، ص١٧٥.

فأتت رسول الله ﷺ وقالت يا رسول الله: إن أوسًا ظاهر مني (أي قال لها: أنتِ عليّ كظهر أمي)، بعد أن كبرت سني ورقَّ عظمي، وإن لي منه صبية صغارا، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، فما ترى؟! فقال لها ﷺ ما أراكِ إلا قد حُرِمتِ عليه، فقالت: يا رسول الله، والله ما ذكر طلاقًا وهو أبو ولدي، وأحب الناس إليَّ[٢٩]. فجعل رسول الله ﷺ يعيد قوله، وهي تكرِّر قولها، فما زالت تراجعه وتقول: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي وقد نفضت له بطني[٣٠] وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها: " يا رسول الله أكل مالي، وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية[٣١]. قالت (خولة): فوالله ما برحتُ حتى نزل فيّ قرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سرى عنه، فقال لي: يا خويلة قد أنزل الله فيكِ وفي صاحبك قرآنا، ثم قرأ عليَّ (الآيات إلى قوله تعالى وللكافرين عذاب أليم)، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: مُريه فليعتق رقبة، قالت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: فليصم شهرين متتابعين، قالت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، فقال رسول الله ﷺ: فإنا سنعينه بعَرَقٍ من تمر، قالت: وأنا سأعينه بعرق آخر، قال ﷺ: قد أصبتِ وأحسنتِ، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمكِ خيرا[٣٢].

في القصة المتقدمة وردت لفظة "تحاوركما" في الآية الأولى في مقام دال على الحوار بين المرأة المؤمنة التي تخشى أن تفقد زوجها، وتضيع أولادها، والرسول الكريم ﷺ الذي أوضح لها ما كان سائدًا في الجاهلية؛ أنها صارت محرَّمة عليه، وهي تحاوره، أي تراجعه في الكلام، وتحاول أن تقدم تبريرًا منطقيًا: فهو لم

---

٢٩) تفسير الطبري، مج١٢، ج٢٨، ص٢. وصفوة التفاسير، الصابوني، محمد علي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م، مج٣، ص١٢٩٣.

٣٠) تفسير القرطبي، ج١٧، ص١٧٦.

٣١) تفسير ابن كثير، مج ٤، ص٣٧٥، وكان زوجها أوس امرءا به لمم، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظاهر من امرأته، وإذا ذهب لم يقل شيئا، راجع أيضا : تفسير القرطبي، ج١٧، ص١٧٦.

٣٢) تفسير ابن كثير، مج٤، ص٣٧٦. وزاد القرطبي أن رسول الله ﷺ نادى أوسًا وقال له: اعتق رقبة، قال مالي بذلك يدان، قال فصم شهرين متتابعين. قال : أما إني إذا أخطأني أن آكل في يوم ثلاث مرات يكل بصري (يتعب بصره ويغشى)، قال : فأطعم ستين مسكينا، قال : ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة. فأعانه رسول الله بخمسة عشر صاعا، حتى جمع الله له والله غفور رحيم. تفسير القرطبي، ج١٧، ص١٧٦وذكر ذلك أيضا الطبري " فلما قضى الوحي، قال : ادعي زوجكِ فتلا عليه رسول الله.."، مج١٢، ج٢٨، ص٣

يطلقها بلفظة الطلاق، وتخشى على أولادها، وترى أنها في خريف العمر؛ قد ضعف جسمها ووهن عظمها، وعندما وجدت أن حكم الرسول واحد، راحت تشتكي إلى الله العظيم، فاستجاب الله لها من فوق سبع سموات. هنا نجد أن المحاورة كانت بشكل مباشر بين الرسول والمرأة ثم زوجها، ثم أنزل المولى تعالى جوابًا على شكوى المرأة، وهذا يعطينا صورة جلية: كيف كانت النسوة يتعاملن مع الرسول، ويراجعنه، بشكل عقلاني؛ يعرِضنَّ المشكلة، وأبعادها، وآثارها المستقبلية، وآلامهن النفسية. كما أن الرسول يدعو الزوج، ويعرض عليه الحل الرباني لمشكلته، والرجل فقير غير قادر على عتق رقبة أو التصدق على ستين مسكينًا، وكبير السن لا يستطيع صوم ستين يومًا، فأعانه الرسول ﷺ، وأعانته زوجته، في تواصل إنساني حميم.

فيشاء المولى أن يكون الحوار (لفظًا) قد ورد في موضعين؛ الأول في قصة المؤمن الفقير، والغني الكافر، في القضية التي تشكل المرتكز الأساسي في دعوات الرسل والأنبياء ألا وهي الإيمان بالله تعالى الخالق المحيي المميت الرازق، وهي قصة ذات عموم في التناول، تتجاوز الإطار الزماني والمكاني، لتكون شاهدة على اغترار الإنسان ونسيانه عطايا الله وفيئه. أما القصة الثانية فهي ذات خصوصية في الطرح، محدودة بزمان ومكان وأشخاص، وتتناول قضية اجتماعية مؤرقة، تهدد البيت المسلم في لحظات زيغ الرجل ولممه، وتعالج بعضًا من آثار جاهلية العرب، كما أن الرسول ﷺ – موضع بحثنا – كان طرفًا مباشرًا فيها، والمرأة – إنسانة وزوجة ومؤمنة وأُمًّا– تحاور الرسول، وتجادله، لتقدِّم لنا صورة خالدة عن مكانة المرأة في الإسلام ودورها في رعاية الأسرة وصيانتها.

وفي المبحث الثاني، سيتم التطرق إلى الحوار بوصفه منهجًا إنسانيًا عالي المستوى، يحقق الاتصال بين البشر، وله الكثير من الأبعاد النفسية والاجتماعية والفكرية، وبعبارة أخرى: إن الحوار هو الوسيلة المثلى والتجلي الأروع للتواصل بين البشر فكريًا ونفسيًا واجتماعيًا، وقد كانت سيرة المصطفى ﷺ النموذج والقدوة لسائر البشر في هذا التواصل.

المبحث الثاني

الحوار منهج علمي إسلامي

الحوار في أبسط أشكاله: تحادث الناس مع بعضهم، فحيثما وجد الناس وتجمعوا فهم يتحاورون من أجل قضاء حاجاتهم، وتبادل الرأي في كل ما يشغل البشر من هموم ومشترك وقضايا وتواصل.

وعند النظر إلى الحوار – بوصفه عملية اتصال بشري – نجده لا يتحقق إلا في "وجود متكلم، ومخاطب، ولابد فيه من تبادل الكلام، ومراجعته" [٣٣]، وهذا يعني أن الحوار لا يتم إلا في وجود لغة مشتركة بين المتحاورين، وأيضًا وجود دوافع ومبررات للحوار بين الناس، وهو هنا يتجاوز الحوار المنطوق الشفاهي ليشمل الكتابي وغيره من وسائل التواصل، ولا يكون حوارًا إلا بتبادل الكلام، وتراجع بين المتحاورين، أي نقاش.

إن الحوار لا يتم إلا في جماعة بشرية متكلمة، بينهم لغة مشتركة، وهو ما يسمى "الاتصال" بين أعضاء الجماعة، وهو يحِّدد – من قضايا الحوار أنماطه – مدى كفاءة الجماعة، المجتمع أيا كان حجمه العددي، في إنجاز مهامها، لأنه بدون اتصال بين أعضاء الجماعة، لن يستطيع أفرادها أن يقوموا بوظائفهم، بشكل فعال، وكلما كان الاتصال ميسرًا، بكفاءة، ينعكس على تفاعل أعضاء الجماعة وتماسكها ورضا أعضائها [٣٤]. فالراصد لأي جماعة إنسانية، يجد أن الحوار هو المظهر الأولي والأساسي في قياس مدى تفاعلهم وحميميتهم، فنمط الاتصال بين الأفراد يحدد درجة المودة بينهم، فحينما لا تكون هناك قناة مشتركة بين شخصين – على الأقل – في الجماعة، فغالبًا لن تكون بينهما فرصة متاحة لتبادل المشاعر والأفكار وهو ما يجعل كلاً منهما بالنسبة بمثابة غرباء، وحينما تتم العلاقة بينهما من خلال

٣٣) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دون طبعة، دون تاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج١، ص٥٠١.

٣٤) انظر : موسوعة العلوم السياسية، تحرير : د. محمد محمود ربيع، د. إسماعيل صبري مقلد، جامعة الكويت، ١٩٩٣، ١٩٩٤م، ج١، ص٤٨٢.

وسيط، فإن طبيعة التفاعل وناتج هذا التفاعل سيتأثر بما سيتركه هذا الوسيط على مشاعر وأفكار كل من الفردين [٣٥].

ففي منظور الدراسات الاجتماعية الحديثة، فإن الحوار هو اتصال بين أبناء الجماعة الواحدة، والاتصال هو: "تفاعل اجتماعي قائم على مرور الرسائل بين الفاعلين الاجتماعيين، ويشير هذا الاتصال إلى نوع من المبادرة التي يتعين القيام بها وإلى نمط من التلقي ومن المضمون والتأثير" [٣٦]

والتعريف السابق للاتصال، يعطي أبعادًا علمية ومحددات لمفهوم الحوار، فقد تطورت النظرة إلى الحوار من مجرد مشافهة بين المتكلمين إلى تحليل علمي في بنيته ومكوناته، فحيثما وجدت الجماعة الإنسانية، وجِدَ الحوار، بكافة مستوياته وأشكاله، وعندما يصبح الحوار "رسالة بين الفاعلين الاجتماعيين" فهو لا يكون مجرد كلمات أو جمل تُلقى، بل يصبح ذا هدف ومضمون، والرسالة تستلزم مرسلاً، ومستقبلاً، ومضمونًا، ومن ثم تأثيرًا متوقعًا، وعليه يدخل الحوار ضمن دائرة العلمية، عندما يتم تحليله، والوقوف على أبعاده ومراميه.

ويعمِّق علم النفس النظرة إلى الحوار Dialogue، فينظر إليه بوصفه بنية صوتية تستوجب التحليل والوقوف عند مغزاه؛ ذلك أن "أصوات المتحاثين في بنية حوارية معينة تتجاوب، ومداخلاتهم تتوالى محتفظة باستقلالها، ومعظم الألسنيين (علماء اللغة المعاصرين) يعترفون اليوم بأن هذه البنية هي في الأساس البيان، حتى في اللغة الداخلية (المونولوج).." [٣٧].

فعلم النفس المعاصر يتعامل مع الحوار بوصفه مظهرًا وانعكاسًا لشخصية الإنسان، فلن نعرف محتوى الإنسان النفسي إلا من خلال ما يقدمه في تفاعله مع الآخرين، وهذا لا يعني أن هناك مرضًا نفسيًا أو شذوذًا في النفس يتم رصده وعلاجه، بل هذا يتم ضمن منظومة التربية الحديثة وعلم النفس أساسها، التي

٣٥) السابق، ص٤٨٣.

٣٦) موسوعة العلوم الاجتماعية، تحرير : ميشيل مان، ترجمة : د. عادل مختار الهواري، د. سعد عبد العزيز مصلوح، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، ص١٣١.

٣٧) موسوعة علم النفس، رولان دورون، فرانسواز بارو، الطبعة الأولى، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٣٣٦.

تعطي المجال الواسع للفرد منذ طفولته إلى التعبير عن ذاته ورغباته وتطور مستوى تحصيله ونموه العقلي والنفسي.

وهناك نمطان، من **التفاعل الاجتماعي الحواري**، مركزان حول نمطين من أنماط الاتصال: اللفظي، وغير اللفظي؛ "فالاتصال اللفظي قد يكون شفاهيًا أو مكتوبًا، حيث الاتصال المنطوق عادة ما يكون مصحوبا بإشعارات غير لفظية (CUES) لابد من وضعها في الحسبان عند التفسير الكامل للرسالة، ومثل هذا الاتصال غير اللفظي يطلق عليه أحيانًا شبه الاتصال والذي قد يُستخدم أيضًا بمفرده مثل الغمز بالعين أو تقطيب الوجه أو المصافحة الحارة، كما أن الإشارات غير اللفظية قد تتم بوعي أو من غير وعي، مثل العبوس والتهلل وأمارات الحب أو المقت، وغير ذلك [٣٨].

فهل من الممكن أن نحلِّل موقفًا حواريًا شفاهيًا، دون تحليل ملامح الوجه وتعبيراته ؟ إن النظرة – مجرد النظرة – لها "تأثير في بعض الأحوال والظروف والمواقف. فللنظرة قوتها التأثيرية في حدود النشاط النفسي والتقائه مع الشخصية"[٣٩].

وهذا يعني أن الحوار يتجاوز الإطار اللفظي المعتاد، في ضوء المنهجية العلمية الحديثة، ليتم دمج كل ما يتداخل ما الحوار –بوصفه رسالة– من إشارات ونبرات صوتية وتعبيرات الوجه والجوارح، وهذا متحقق بشكل كبير في أحاديث الرسول ﷺ، فالأحاديث ليست مجرد عبارات وكلمات تلقى، إنها معبرة عن موقف ذي مضمون فكري وعقدي وتربوي وإرشادي، وفي كل موقف كان الرسول ﷺ: حاضرًا بكامل جسده: لفظًا ووجهًا وأعضاء، وهذا ما سيتم التطرق إليه بعد ذلك.

ومن المهم التفرقة بين الحوار والجدال والجدل، **فالجدال** Eristic هو: "المراء المتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، وقوامه استعمال الاستدلالات المموهة،

---

٣٨) انظر : موسوعة العلوم الاجتماعية، ص١٣١.

٣٩) دائرة المعارف السيكولوجية، عبد اللطيف شرارة، دار صادر،ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٤م، ج١، ص٤٠٣، ٤٠٤.

والحجج السسفسطائية، فلا غرو إذا قيل أن أصحاب هذا الفن يفنّدون كل شيء دون إثبات شيء، وأهم المدارس التي اشتهرت بفن الجدال عند اليونانيين مدرسة الميغاريين" (٤٠)

فالجدال هو المظهر السلبي للحوار، فهناك طائفة من الناس معروفون بكثرة الكلام، والقدرة على طرح الأسئلة، وإثارة الشك، واختراع الحجة ونقيضها، المهم إبراز موهبتهم الكلامية، والتشكيك في القضايا المطروحة، وعدم الوصول إلى نتيجة: علمية، فكرية، أو حقيقة، أو مبدأ. وهؤلاء قد يكونون سببًا في انهيار المجتمعات، وتشتت الأفكار، ووهن المبدعين، ولننظر إلى المجتمع اليوناني القديم الذي كانت المناقشة والحوار عنوانين لفلسفته وانتشرت حتى كادت تصبغ المجتمع كله: غنيه وفقيره، علمائه وطلابه بطبيعتها، عندما تطورت الأمور فيه إلى المراء الفلسفي؛ انهار المجتمع ثقافيًا وفكريًا.

وكان السبب في ذلك طائفة السوفسطائيين، وقد كانت آثارهم الإيجابية في ابتكارهم علم القواعد والمنطق، وهم الذين ارتقوا بفن الجدل وحللوا أشكال الحوار وعلّموا الناس كيف يكشفون الخطأ المنطقي، وكيف يمارسونه، فشغف الشعب بالمناظرة والاستدلال، فزادوا الأفكار وضوحًا ودقة، ويسَّروا انتقال المعرفة انتقالاً صحيحًا (٤١). أما آثارهم السلبية فتبدو في حبهم الشديد للمال، حيث جعلوا الجدل وقواعده وفنونه مهنة للارتزاق وليس لطلب العلم، وإيجاد تراكم معرفي، كما أنهم لم ينقلوا لطلابهم الأخلاق الطيبة والفلسفة الخلقية، فغرق الشباب في الملذات، وتحقيق الرغبات والشهوات بأية وسيلة، وأصبح الشاب السوفسطائي يبرِّر شهوانيته حسبما يراه هو بعقله، ويرى أن فضائل النفس تتحقق في انطلاق العقل، فانهمك الناس في الماديات، متحللين من قيود الأخلاق، وجادلوا في كون الأخلاق خرافة إنسانية، وأن الحق هو القوة، وقاسوا الأمور بمعيار فردي، فلا قيود لضمير

---

٤٠) المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص ٣٩٠.

٤١) نفسه، ص٢١٧.

أو دين، وانعكس ذلك على المجتمع، فكثر التهريج السياسي والاحتيال على القانون[٤٢].

ونرى الفيلسوف اليوناني"أفلاطون" قد استنفذتْ هذه الحُمى الفلسفية قواه، بعد أن دامت هذه الحال ستين عامًا من الجدل، وكان يحسد "مصر" على إيمانها الديني واستقرار أفكارها وهدوئها[٤٣]، والفيلسوف "سقراط" كان طيلة حياته مُعجبًا بالطُرق الجدلية للفيلسوف "زينون"، وقد أتعب نفسه وقومه لتحمسه لهذه الطريقة، إلى أن اضطر قومَه لقتله ليريحوا عقولهم من جدله[٤٤]، وقد اتهم سقراط السوفسطائيين أنهم يموهون الخطأ بزخرف المنطق ويقنعونه بقوة البلاغة، واحتقرهم لكونهم يتقاضون أجورًا على عملهم [٤٥].

والفيلسوف "زينون" نفسه الذي وضع أُسس المناظرات والجدلية وعلّمها السوفسطائيين، أدرك في شيخوخته أن المراء لا طائل منه، فانقلب إلى رجل ذي حكمة عظيمة، وعلم غزير، وأخذ يشكو من الفلاسفة الذين حملوا مزاحه العقلي في أيام شبابه محمل الجد (أي جداله) [٤٦].

وقد وجد أمثال هؤلاء –وكانوا مجرد أفراد– في عهد الرسول ﷺ، وارتَدُوا مسوح الدين، وكان يشككون بدوافع عدة، منها التحبيط واليأس، ونشر الإرجاف والخوف، والتشكيك في الدعوة وفي القرآن الكريم، ووسم الرسول ﷺ بالكهانة والسحر... وقد تعامل معهم الرسول ﷺ حُسن المعاملة، وحاورهم وأقنع من حولهم، وظلوا هم على تشكيكهم وجدالهم.

وهناك **الجدل** Dialectic ويقصد به: "فن الحوار والمناقشة، قال أفلاطون: هو الذي يحسن السؤال والجواب، والغرض منه الارتقاء من تصور إلى تصور، ومن

---

٤٢) انظر : المرجع السابق، ص٢١٨، ٢١٩.

٤٣) قصة الحضارة، ول وايرايريل ديورانت، المجلد السابع، (حياة اليونان)، دار الجيل، بيروت، دون طبعة، ١٤٠٨هـ ـ، ١٩٨٨م، ص١٩٥،

٤٤) السابق، مج ٧، ص١٩٩.

٤٥) السابق، مج٧، ص٢١٩.

٤٦) راجع : المرجع السابق، مج٧، ص١٩٩.

قول إلى قول؛ للوصول إلى أعم التصورات وأعلى المبادئ. فالعلم يُكشَف بطريقة الحوار" [٤٧]

إذن الجدل مصطلح لعلم يعني بالطرق والإجراءات التي يتبعها المحاور وتشمل طرح الأسئلة، وإثارة العقل، وعصف الذهن، للوصول إلى حقيقة أو مبدأ أو لُبِّ قضية أو ترسيخ خُلُق أو تعزيز مفهوم. وبعبارة أخرى يمكن أن نسمي الجدل: المنهج العلمي للحوار، فالحوار يهدف إلى: "توليد الأفكار الجديدة في ذهن المتكلم، لا الاقتصار على عرض الأفكار القديمة، وفي هذا توضيح للمعاني، وإغناء للمفاهيم؛ يفضيان إلى تقدّم الفكر" [٤٨].

وهذا الفن عميق الجذور في الثقافة الإسلامية، وقد بدا واضحًا فيما يُسمى **علم الكلام** الذي يعرِّفه ابن خلدون رحمه الله أنه: "معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم... فإنه لما كان من باب المناظرة في الرد والقبول متسعا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابًا، ومنه ما يكون خطأ؛ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابًا وأحكامًا يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول"[٤٩]. وقيل فيه أيضًا: "إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه"[٥٠].

فقد ربط ابن خلدون بين فن الجدال، والحياة الثقافية في المجتمع المسلم حيث تعددت وتنوعت المذاهب الفقهية والكلامية فكثرت المناظرات والمحاججات، وهذا طبيعي عندما تتماوج الأفكار وتكثر النظريات، وتتعدد الفرق، وترغب كل طائفة في نشر أفكارها، ودحر مخالفيها. وقد يأخذ الجدل المتكلمَ فيبالغ في الاستدلال، أو يقدم الحجة الخطأ، والدليل التافه، فاتفق على وضع قواعد بين المتناظرين، تكون مقاييس للوصول إلى الحقيقة، وهذا هدف المناظرة، كيلا تتحول إلى سفسطة،

٤٧) المعجم الفلسفي، ص ٣٩١.
٤٨) السابق، ص٥٠١.
٤٩) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، تاريخ العلامة ابن خلدون،عبد الرحمن بن خلدون، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٧م، ط٣، مج ١، ص٨٢٠.
٥٠) نفسه، ص٨٢١.

وذلك مستقى من القرآن الكريم، فنحن أمة النص المقدس، الحاكم لحياتنا، وهو العاصم لنا من الزلل والزيغ.

ويسمى علم الكلام أيضًا بـــ"علم التوحيد" نسبة إلى أحد أجزائه والمشتغلون بهذا العلم تارة يُسمَّون بالمتكلمين وتارة بعلماء التوحيد، والفرق بين الفلسفة وعلم الكلام أن الفلسفة تبحث في الوجود من حيث هو موجود بحثًا عقليًا خالصًا، على حين أن علم الكلام يبحث في الوجود بحثًا مبنيًا على صريح العقل وصحيح النقل بحيث تكون عقائد الدين بمنجاة من شُبَه المبطلين، ويعتمد علم الكلام على النظر العقلي في إثبات العقائد الإيمانية المسلمة من الشرع [٥١].

وقد تطور هذا العلم، ودخل في ميدان الدعوة عبر ما يسمى علم الكلام، وهو العلم الذي: "يتضمن الحُجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد" [٥٢]. وهذا هدفٌ – بلا شك – نبيل، وقد وضع المتكلمون المسلمون قواعد رائعة في الاستدلال والاحتجاج، ويمكن أن تكون ملهمة إذا تمَّ تفعيلها بشكل بنّاء وحيوي، في الرد على الطاعنين والمخالفين والمتشككين في الإسلام[٥٣] ولكن حدث إسراف كبير لدى المتكلمين حين اختلطت مباحثهم بمسائل الفلسفة، فصار لا يتميز أحد الفنين عن الآخر ولا يحصل عليه طالب من كتبهم [٥٤].

---

٥١) المعجم الفلسفي، م س، ج٢، ص٢٣٥، ٢٣٦. ويضيف المؤلف " الغرض من علم الكلام الدفاع عن حياض الدين بالرد على المبتدعة، قال الغزالي : لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه...، تشوق المتكلمون إلى محاولة الزب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها " ا. هـ، ومن هنا بدأ هذا العلم في الانحراف عن أهدافه.

٥٢) تاريخ ابن خلدون، مج١، ص٨٢١.

٥٣) يجدر بالذكر أن هناك العديد من البحوث التي تعني بكيفية الاستفادة من هذه المناهج، منها على سبيل المثال دراسة الدكتور رزق يوسف الشامي المعنونة بـ " استلهام قواعد علم الكلام في الرد على العلمانيين والملحدين " رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨٩م، ويستلهم الباحث فيها قواعد علم الكلام بشكل إيجابي كي تكون نبراسا في الرد على ادعاءات الملاحدة والشيوعيين والعلمانيين المعاصرين.

٥٤) تاريخ ابن خلدون، ج١، ص٨٣٧. ويذكر أنهم تعمقوا في مباحثهم فابتعدوا عن أهدافهم، وخاضوا في التنزيه الإلهي، وحدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والإرادة والحياة...، وقضوا بأن القرآن مخلوق وذلك بدعة صرّح السلف بخلافها وعظم ضرر هذه البدعة، وحول بعض الخلفاء حمل الناس عليها، وخالفهم أئمة السلف واستحل الخلاف لخلافهم وضاعت أموال كثيرة وأهدرت دماء. انظر ابن خلدون، ص٨٣٢.

إذن، فقد تميزت الحضارة الإسلامية بوجود أُسس وقواعد وعلوم الاحتجاج والاستدلال، ولكنها ارتبطت بلُبِّ الإسلام وعقيدته، فنبعتْ من تصوراته، وسعتْ إلى الذود عنه، وعند انحرافها وجدت من علماء الشريعة ما يدين انحرافها، وينصح العامة والخاصة باجتناب هذا الزيغ، وهذا ما يميِّز الثقافة الإسلامية في كون أحكام الشريعة هي البوصلة التي تعدِّل المسار، وتنذر الربّان بالخطر، كي ينجو الناس جميعًا.

وفي المبحث التالي سيتم تناول شخصية الرسول ﷺ وأبرز ما يميز هذه الشخصية: علمًا وفِكرًا ولُغةً وأخلاقا، فسنته الشريفة موضوع البحث، وحوارياته كانت وستظل ملهمة للأمة المسلمة خاصة، والإنسانية عامة.

المبحث الثالث

تميز شخصية الرسول ﷺ

لُغةً و خُلقًا و حوارًا

عند النظر إلى منهج الحوار في السيرة النبوية وأشكاله وقضاياه، ندرك كيف كان الحوار هو الأساس الذي اعتمده الرسول ﷺ في الدعوة ونشر أحكام الإسلام وتعميقه في الأفئدة، وفي صناعة القرار وتشكيله مع صحابته الأبرار، وفي طريقة تنفيذ القرار، وهنا لا ندرس الحوار بوصفه حوارًا صادرًا عن عالم أو أديب، وإنما صادر عن رسولٍ مُرسَل من الله جلّ وعلا، تهيأتْ في شخصيته كثيرٌ من العوامل المميزة، التي جعلته يتبوأ مكانة سامية؛ شهد له بها الكافر قبل المسلم، الحكيم قبل البسيط، المرأة والرجل والطفل، هذه المميزات في شخصية الرسول ﷺ جعلتْ حوارياته تتسم بالصدق والبلاغة والحكمة والهدى، ويمكن أن نجمل هذه المميزات في النقاط الآتية:

١) تكامل شخصية الرسول ﷺ :

لقد كانت شخصية الرسول ﷺ شديدة التميز على المستوى الإنساني والعقلي والقيادي، ثم تمت المنة الكبرى بالرسالة الإلهية المنزلة، وهذا ما يؤكده الشيخ محمد أبو زهرة في وصفه لشخصية الرسول بقوله: "لم يتوافر العقل في إنسان كما توافر في محمد بن عبد الله، ولو لم ينزل عليه الوحي، ويُخَاطَب من السماء، لكان عقله وحده كافيًا لأن ينشئ دولة، ويقيم مجتمعًا طيبًا فاضلاً، ولكن أتمَّ الله عليه نعمته فجعله نبيًّا مرسلا، فاجتمع له الكسب الذاتي، بالإدراك، بالفطرة الإنسانية العالية المكتملة، بالتكوين الإنساني، والرسالة الإلهية الهادية المرشدة... وما كانت إحداها لتغني عن الأخرى"[٥٥].

---

٥٥) خاتم النبيين، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ج١، ص٢٣١.

فالسمات السابقة تجلي كيف كان الرسول متميزًا إنسانًا وقائدًا وبليغًا قبل الدعوة، وهذا من إعداد الله تعالى له، حتى يكون أهلاً لحمل الرسالة، وهو ما يؤهله لقيادة العرب بالحكمة، وتكوين مجتمع فاضل معهم، ولكنه مجتمع إنساني فحسب، أما وقد نال منة الله بالهداية والقرآن، فقد جمع ما بين القوة الإنسانية والإرشاد الرباني.

ويرى البعض أن الرسول محمد ﷺ لم يكن متميزًا وسط قومه في مكة بشيء ذي بال في عُرف العرب في الجاهلية؛ "فلم يكن بالشاعر الذي يرنن أوتار القلوب، ولا بالخطيب الذي اختلب أهواء النفوس، ولا بالعالم الذي يستهوي شهوات العقول، ولا بالفارس الذي يلجأ إليه في حماية الحوزة في حرب... فلم يُعرَف بشيء مما كان العرب يعولون عليه في منازعاتهم ومكاثراتهم ومماتناتهم (مبارياتهم) ومنافراتهم" (٥٦)، ولكن الميزة التي تميز بها عن جيله؛ ميله الواضح إلى السكينة والوقار والتفكير كلما تقدمت به السن، وهي مظهر لِمَا استتر في نفسيته من نزوع إلى أفق الروح، والاتصال بعالم الملأ الأعلى، وما لازمت هذه الصفة نفسًا بشرية إلا وجهتها هذا التوجيه الروحي على قدر ما فيه من قوة (٥٧).

ربما يكون الرأي السابق مقبولاً بشكل أولي، ولكن هناك مجموعة كبيرة من المؤشرات في شخصية الرسول ﷺ الدالة على أنه متميز في أعماقه، ثم جاءت البعثة والتكليف الإلهي لتظهر هذه المواهب، ومن هذه المؤشرات: تصرفه الحكيم في حادثة وضع الحجر الأسود في الجاهلية؛ فلما تهدم البيت الحرام بفعل سيل شديد، واجتمع أهل مكة على بناء الكعبة بنفقة ليس فيها مهر بغي ولا بيع ربا حتى تمَّ البناء ثماني عشرة ذراعًا، اختلف أشراف قريش عندما أرادوا وضع الحجر الأسود، في من يضعه، وتنافسوا في ذلك ورفعوا السيوف، ودام الخصام أربع ليالٍ، وكان أسنّ رجل في قريش إذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومي، عم خالد بن الوليد، جاء فقال لهم: يا قوم لا تختلفوا وحكّموا بينكم من ترضون بحكمه،

---

٥٦) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٨٦.
٥٧) السابق، ص٨٧.

فقالوا نكل الأمر لأول داخل، فكان هذا الداخل هو محمد بن عبد الله، فاطمأن الجميع له؛ لما يعهدون فيه من الأمانة وصدق الحديث فلما أخبروه بالخبر بسط رداءه وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه، وأخذه ووضعه فيه[٥٨].

فهذا الموقف يشير إلى المكانة الطيبة التي احتلها الرسول ﷺ في الجاهلية، وهي ليست بمكانة زعيم قبيلة ولا خطيب ولا شاعر وإنما هي مكانة: أخلاقية؛ فهو الصادق الأمين، ومكانة عقلية؛ فقد كانوا يحتكمون إليه في أمورهم، ومكانة نسبه الطيب في القبيلة، وقد جاء تصرفه في حل هذه المشكلة ليضع حدًّا لفتنة بين بطون مكة، كان يمكن أن تكون نارًا تحرق أبناءها وتفنيهم؛ هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنه من المنطقي أن يكون الرسول غير ذي زعامة ومنصب في هذا المجتمع، حتى لا يكون منغمسًا في حياتهم بمثالبها ومآخذها، حتى إذا جاءته البعثة من الله تعالى، ظهرت المعجزة الربانية في شخصه الكريم، فهو ليس بشاعر فيُتَهم بتأليفه آيات القرآن، وهو أمي ولم يطلع على كتب الأمم السابقة حتى يوردها فيما يقول، قال تعالى: **{ وَمَا كُنْت تَتْلُو مِنْ قَبْله مِنْ كِتَاب وَلَا تَخُطّهُ بِيَمِينك }**[٥٩] وصدق الله تعالى وهو يقول عن المبعوث رحمة للعالمين مبرئًا إياه من الاطلاع على الكتب السابقة، فقد تلقى العلم كاملاً من الله تعالى:

{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ

---

٥٨) جاءت قصة تجديد الكعبة الشريفة في مصادر عدة منها : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري، دار الجيل ببيروت ودار عمار بعمّان، ط١، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٧م، ص٢١-٢٣ وقد حقق روايات عدة عن الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في المستدرك، والطبراني، وراجع أيضا : صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٨٢٩) رواية جابر بن عبد الله.

٥٩) سورة الْعَنْكَبُوت، الآية (٤٨).

فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } (٦٠).

(٦٠).

جاء في تفسير الآيتين الكريمتين تفرد الرسول بهذه الصفة "لِأَنَّهُ لَا يُعْلَم للَّهِ رَسُول وُصِفَ بِهَذِهِ الصِّفَة -أَعْنِي الْأُمِّيّ- غَيْر نَبِيّنَا مُحَمَّد صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(٦١

وهو ﷺ صادق أمين لا يتوقع منه الكذب ولا الاحتيال، وليس بخطيب معروف لأنه غير مشارك في الجاهلية وتجمعاتها بما فيها من ملذات ومنهيات، وليس زعيم قبيلة أو بطن لأن الزعامة تأتي لشخص يتم التوافق عليه من رجال قبيلته أو بطنه، وهذا يعني أنه يوافقهم في معتقداتهم ويقر أخلاقهم وإن ساءت، وهذا لم ولن يحدث من شخص الرسول ﷺ الذي كان كثيرًا ما كان يدين معتقداتهم وأصنامهم التي لا تنفع ولا تضر، ولا يشرب الخمر ولا يعرف طريق الغانيات، فابتعاثه كان عنوانًا على الإعجاز الإلهي في ظهور مواهبه الخاصة: الأدبية والحوارية وقدرته على الإقناع، وكونه نموذجًا في الخُلُق والهدي الكريم، وعنوانًا لزعامة وقيادة نبوية تخالف ما درج عليه الناس من زعامات قبلية، أساسها التعصب القبلي والثروة والجاه. فإذا كان الناس في الجاهلية غير مكترثين بمحامد الرسول ﷺ، "فإننا نستطيع أن نعرفها بما عرف عنه بعد النبوة والتفاف الناس حوله، ونقلهم كل شاردة وواردة من أعماله وأخلاقه، والحكم على ما كان عليه إنسان من أحوال وآداب في أول أدواره، بما عرف عنه منها بعد وصوله إلى قمة المجد، وبلوغه مراميه يكاد لا يعدو الحق... فكل ما دُوِّن عن محمد ﷺ بعد مبعثه من شمائل وآداب كانت لاشك له وهو في ميعة الصبا وعدم استكمال سنِّ النبوة، وقد دُوِّن من شمائله أنه كان وادعًا متواضعًا، هينًا لينًا، يلقى أصحابه هاشًا باشًا لا يترفع عنهم بل يؤثرهم على نفسه، ولا يسمح لهم بتعظيمه ولا تقبيل يده "(٦٢) وهذه الصفات لا تجتمع لزعيم قبيلة جاهلية ولا لشريف من أشرافهم، فهي صفات الخلق المتكامل، والنبوة الصادقة.

٦٠) سورة الأعراف، الآيتان (١٥٧ـ ١٥٨).
٦١) تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، سورة الأعراف، الآية (١٥٧).
٦٢) السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة، ص٨٧، ٨٨.

٢) وفور عقل الرسول ﷺ:

لم يكن الرسول ﷺ فيلسوفًا ولا أديبًا، ولا مؤلفًا، إنه صانع أمة، ومكوِّن شعب، ونبي مرسل، يحمل ما تنوء الجبال بحمله، وهو رسالة القرآن. فلا يمكن أن نتعامل مع الرسول –في حوارياته– بكونه مفكِّرًا أو فيلسوفًا، وإنما نتعامل معه بوصفه نبيًا مرسلاً، مربيًّا أمة كانت خير أمة أُخرِجتْ للناس. وهذا ما يفارق به الرسول ﷺ الفلاسفة والمفكرين وقادة الشعوب فالعقل الإنساني يضلُّ ويصيب، مهما توافرت له من معلومات وقيم، أمَّا لو تسلح بالهداية الإلهية، فلا مجال للخطأ ولا سبيل للزيغ. "إنما العقل يدبر ما يحيط به وهو من غير هداية الوحي لا يفكر إلا فيما بين يديه، ولا يخترق الحجب والأستار إلى ما وراء ما لديه، فلابد من علم الله يمده بعلم القابل وهو عالم الغيب والشهادة"(٦٣).

وقد فطن الفقهاء القدامى إلى تميز شخصية النبي ﷺ، كما أوجزه القاضي عياض في نعته للرسول: " أمَّا وفور عقله وذكاء لُبِّه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال حركاته، وحُسن شمائله فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمَّل تدبيره أمرِ بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة مع عجيب شمائله وبديع سيره" (٦٤). فمثل هذه الشمائل لا تتوافر لشخص عادي، وإنما لشخص مميز ملهم موحى إليه، فدومًا نجد في عباقرة البشر أنهم متميزون في أمور ولديهم قصور في أمور أخرى، أما هذا التكامل الخلقي والجسدي والروحي والعقلي واللساني فلا يتحقق إلا في شخصية أُعدَّت ورُبيت بيدِّ الله تعالى.

ولنتوقف عند سِمَّة العقل لدى المبعوث ﷺ، يقول القاضي عياض: ".. فضلاً عما أفاضه من العلم، وقرَّره من الشرع، دون تعلم مسبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه لم يمتر في رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة" (٦٥).

---

٦٣) خاتم النبيين، ص ٢٣١.

٦٤) الشفاء، القاضي عياض، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، دون تاريخ ج١ ص٤٣

٦٥)الشفاء، ص٤٣.

لا نجد فيما سبق تميزًا بشريًا، بل المنة الإلهية، فكيف تأتت هذه القدرات العقلية للرسول وهو الأُمي، الذي لم يمتلك قدرة القراءة، حتى يطالع الكتب الدينية السابقة، والمعارف والعلوم والحكمة، فهذا أدلُّ على إلهام الله تعالى لرسوله الكريم. وقد قال وهب بن منبه: "قرأتُ في أحد وسبعين كتابًا فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأيًا. وفي رواية أخرى: فوجدت في جميعها أن الله لم يعطِ جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا" (٦٦). إن هذا الإجماع على التميز العقلي للرسول ﷺ، يجعل محبتنا للرسول وإيماننا به تشمل التعلق الروحي إلى التأمل والدرس في شخصية خاتم الأنبياء فهي جامعة للكمال البشري في المنظور الفلسفي والنفسي والعقلي، والوحي الرباني.

ويضاف إلى هذه السمة، ثقته ﷺ بالله تعالى، وهي منعكسة على تمسكه بالدعوة إلى أن يهلك دونها، "فقد كان جامعًا للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان، وكان مشهورًا بصِدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه" (٦٧). إن هذه السمة تعطي ثباتا لمن حول الرسول ﷺ الذين يتعرضون للمحن والتعذيب، وعندما يضاف إليها المحبة لمن حوله من الصحابة الأبرار وكل من يدخل الدعوة جديدًا، تصبح مزيجًا من الثبات والاطمئنان والارتباط في طريقٍ واحد.

٣) بيئة الرسول ﷺ اللغوية وتكوينه الأدبي:

كان الرسول ﷺ ذا لسان عربي فصيح، ولا عجب في ذلك، فقد نشأ في قريش وهي من أفصح اللهجات العربية، وكان يحضر أسواق مكة، ويتذوق ما يُنشد فيها من أشعار، وعاش رضاعته في بني سعد بهوازن وهوازن من أفصح قبائل العرب وكما يقول إسماعيل بن عبد الله: " أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم: أن قريشًا أفصح العرب

٦٦) نفسه، ص٤٣.

٦٧) عبقرية محمد، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢ ١٩٦٩م ص٣٣.

ألسنةً، وأصفاهم لُغةً، وذلك أن الله جلَّ ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمدًا ﷺ فجعل قريشا قُطّانَ (ساكني) حَرَمِه، وجيران بيته الحرام، وولاته" [٦٨] فقد تميزت قريش مكانةً في رعايتها بيت الله الحرام، ولُغةً في استواء لسانها، وهذا ما جعل لغتها العربية منتشرة بين عموم قبائل الجزيرة العربية، بحكم المكانة الروحية لقريش، وقد كانوا يسمون قريشًا "أهل الله؛ لأنهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام، ولم تشبهم شائبة، ولم تنقلهم عن مناسبهم ناقلة" [٦٩].

والنصوص الشعرية الواردة من الشعر الجاهلي تدل دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى، كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم؛ رغم أن المستشرقين شككوا في هذه اللهجة وفي أصلها، وسعوا إلى نفي لهجة قريش وادعوا ادعاءات مختلفة في هذه اللهجة الفصيحة المستقرة في الشعر الجاهلي وبها نزل القرآن الكريم، ولكن الواضح أن هذه الآراء تعتمد على الفرض والحدس وقد أراد بها أصحابها أن يناقضوا أشد المناقضة ما استقر في نفوس أسلافنا من أن هذه اللهجة الفصحى إنما هي لهجة قريش التي نزل بها الذكر الحكيم[٧٠] وقد رفض المستشرقون أيضًا نظرية العرب في كون الفصحى عين اللهجة القرشية، فقد ذهبوا يطلبونها في لهجات القبائل النجدية، متناسين أن شيوع لهجة ما يقترن بحالة سياسية أو روحية أو حضارية، بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبرى، وهذا ما تحقق في لهجة قريش فقد كانت مكة مهوى أفئدة العرب في الجاهلية، وكان لها نفوذ واسع بسبب مركزها الروحي ونفوذها الاقتصادي لكونها مركز التجارة وملتقى القوافل والأسواق [٧١]. وهذا من السنن اللغوية أن تتفوق لهجة أو

٦٨) الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فرسي بن زكريا، شرح وتحقيق : السيد أحمد صقر، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، يوليو، ٢٠٠٣م، ص٣٣.
٦٩) نفسه، ص٣٣.
٧٠) انظر : العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف مصر ١٩٦٠، ص١٣١-١٣٢
٧١) العصر الجاهلي، ص١٣٣.

لغة ما، لعوامل عدة، وقد توافرت هذه العوامل لقريش بجلاء وهي عوامل خارجية أي تتصل بظروف جغرافية (موقع مكة)، وتجارية (ملتقى الأسواق)، وروحية (وجود الكعبة). وهناك عوامل لغوية تتصل بمسلك قريش اللغوي، فقد كانت "مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب. ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس" [٧٢]. فليس بمستغرب أن تكون لُغة قريش هي الفصحى التي عمَّتْ في الجاهلية لتشمل كل القبائل العربية شمالاً وغربًا وشرقًا وفي اليمامة والبحرين، وسقطت إلى الجنوب في اليمن لتكون في لغة حمير، وعندما قدمت الوفود إلى الرسول ﷺ كان يحاورها وهم يفهمونه دون مشقة، وسرعان ما فهموا القرآن الكريم بمجرد سماعه، وحتى اللهجات التي نزل بها القرآن الكريم كانت لهجات القبائل الأقرب إلى قريش، ومن هنا جاءت فصاحتها وحجية الاستشهاد بها، وقيل إن لغة قريش نفسها تستوعب اللهجات السبع للقرآن [٧٣]. ومن المنطقي أن تعدد القراءات القرآنية، واللهجات التي نزل بها القرآن الكريم، ليدل على أن القرآن كان مفهومًا لدى القبائل العربية، وتناقلوه فيما بينهم، قبل أن يغدوا إلى الرسول ويسلموا، فقد كانوا يتناقلون الأشعار؛ وهي مصاغة على لغة قريش، وأيضًا تناقلوا السور القرآنية، وتذوقوا بلاغتها وهداها، لأنهم يعرفون لغة قريش جيدًا، فلما قابلوا الرسول، وسمعوا بلاغته في حواراته، دخلوا الإسلام أفواجًا، خاصة أنهم وجدوا في شخصية الرسول ﷺ تكاملا في التكوين اللغوي والبيئي والعربي، فقد جمع ما بين الحضارة النسبية (التمدين) في مكة، وفصاحة وبساطة أهل البادية، بجانب فهمه عاداتهم وتقاليدهم، وطريقة تفكيرهم، وسُبل تلقيهم المفاهيم والتصورات والمدركات، كما أنه ﷺ علم الكثير

---

٧٢) الصاحبي في فقه اللغة، م س، ص٣٣، ٣٤.

٧٣) راجع : العصر الجاهلي، ص١٣٤- ١٣٥.

عن لهجات القبائل العربية، واختلافها. وقد كان محمد ﷺ "خبيرًا بالنفوس ومعادنها، والدنيا وأطوارها، والزمان وتقلبه، والأديان الأولى وما عانت وعانى رجالها، وهم يشقون طريقهم في الحياة، وعقول الأنبياء من ورائها فطر مجلوة وإلهام لمَّاح، فكيف بشيخ الأنبياء الذي تعهده القدر من نشأته ليحمل رسالة معجزة في أسلوبها، وأسلوبها يقوم على الفطر وتفتيق الألباب" (٧٤).

فإذا كانت هذه سماته التي بانت في سيرته العطرة، وأقواله النضرة، وأحاديثه الشريفة، فكيف أوتيها ؟ إنها من تأديب الله تعالى له، وهذا سرٌّ الإعجاز الرباني في شخصية النبي، وكما قال المصطفى ﷺ: (أدَّبني ربي فأحسن تأديبي)، ليكون في شخصيته نموذجًا للنبوة الحقة التي لم تلوثها التقاليد والعادات الحضرية أو البدوية، فهو: "لم يتلق علمًا على راهب أو كاهن أو فيلسوف ممن ظهروا على عهده، ولكنه بعقله الخصب وفطرته الصافية، طالع صحائف الحياة، وشؤون الناس، وأحوال الجماعات، فعاف منها ما ساءه من خرافة، ونأى عنها، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم" (٧٥).

٤) الخطاب النبوي في المنظور الشرعي:

وهي سمات اتفق العلماء عليها –تقريبًا – قديمًا وحديثًا، وعند المقارنة بين أقوالهم جميعًا، نلاحظ إعجابهم الشديد بهذه السمات، وهي ناتجة عن تميز شخصيته أخلاقيًا، ووفور عقله واتزانه النفسي، وتكوينه اللغوي بمنابعه الأدبية الثرية المستقاة من عيون الشعر الجاهلي وأدبه، وهذه نراها جلية في كتب صحاح الحديث، والموثق من السيرة النبوية الشريفة. فقد شهدوا للرسول ﷺ أنه أفصح الناس منطقًا، ينطق بالحكمة وفصل الخطاب، فهو إذا أرشد كانت ألفاظه كالجوهر، تنثر بين الناس من غير بهرجة وفيها جوامع الكلم (٧٦).

---

٧٤) فقه السيرة، محمد الغزالي، راجع أحاديثها الشيخ محمد ناصر الألباني، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٧، ص١٩٧٦م، ص٥٤.

٧٥) السابق، ص٧٣.

٧٦) خاتم النبيين، م س، ص ٢٣٦.

ويقول القاضي عياض عنه: " وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل، سلامة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم وخُصَّ ببدائع الحكم، وعلم سنة العرب، فكان يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها (لهجتها)، ويباريها في منزع بلاغتها... ومن تأمل حديثه وسيره، علم ذلك وتحققه، وليس مع قريش والأنصار وأهل الحجاز فحسب، فنجد كلامه مع وطيفة الهندي، وقطن بن حارثة العليمي، والأشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندي، وغيرهم من أقيال حمير وملوك اليمن " [٧٧].

و**خطاب الرسول** ﷺ: له الكثير من السمات، والمحددات التي تجعله موضع بحث ودراسة، ونهجًا يُتبَّع إلى قيام الساعة، يقول الماوردي: "وأمَّا خطاب الرسول لأمته فيما بلغهم من رسالة ربه، بعد ظهور معجزته والإخبار بنبوته، وشروحه للأمة، فمعتبر بخمسة شروط: أحدها: العلم بانتفاء الكذب عنه فيما ينقله عن الله تعالى من خبر، أو يؤديه من تكليف. والثاني: أن يعلم من حاله أنه لا يجوز أن يكتم ما أُمِر بأدائه"[٧٨].

ونلاحظ أن الماوردي يتناول خطاب الرسول ﷺ من الوجهة الشرعية، وهذا هو الأساس الأول الذي ينبغي أن نتعامل معه مع أحاديث الرسول ﷺ، فهو المصدر الثاني للتشريع في الإسلام، وهذا يستلزم أن نتلقى كل ما صدر عنه بعد البعثة بهذا المنطق، وهذا أساس يتصل بتوقيت المروي عن الرسول، وهو بعد التكليف بالرسالة، وليس قبلها، أما المحدد الأول فيتصل بالقبول القلبي من الجماعة المسلمة، وبالتسليم المطلق أن كل ما يصدر عن شخص الرسول ﷺ صادق، ومصدر للتشريع، والمحدد الثاني متصل باعتقادنا عن محمد الإنسان والرسول فهو لا يمكن أن يكتم ما أُمر بتبليغه من الله تعالى، وكلا المحددين يرسي طريقة تلقي المسلمين لما يصدر عن الرسول دون شك أو تكذيب.

---

٧٧) الشفاء، ص٤٤١.

٧٨) أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تقديم وشرح : محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ص٤٩.

ويضيف الماوردي: "... والثالث: أن ينتفي عنه ما يقتضي التنفير من قبول قوله، لأن الله تعالى حماه من الغلظة، وكان أولى أن لا ينفر عن قبول خطابه"[٧٩]. وهذا محدد يتصل بطريقة القول والسلوك للرسول ﷺ، فليست البلاغة وحسن التأليف اللفظي، وهداية القول، وشرف القصد والمعنى فحسب، بل إن الأمر يتصل بالذات المصدرة القول، في سلوكها الحياتي، وأخلاقها اليومية، فكيف يتعلم الناس من شخص جاف غليظ خشن التعامل، سيء الخلق ؟! وهنا كان الرسول النموذج في الأخلاق الحسنة.

والمحدد "الرابع أن يقترن بخطابه ما يدل على المراد به لينتفي عنه التلبيس والتعمية في أحكام الرسالة" [٨٠]، وهذا يتصل بألفاظ الخطاب النبوي، وطريقة صياغتها، فالرسول ﷺ واضح العبارة، تراكيبه بسيطة، مغلفة كلماته بالسهولة، بعيدة عن الإلغاز، وهذا متصل بطبيعة المتلقين له فهم عامة الناس وخاصتهم، فينبغي أن يكون الخطاب على درجة من البساطة مع البلاغة في استقطاب قلوبهم، وإقناع عقولهم. ويؤكد الماوردي هذه المناحي وهو يتناول قضية الإبهام والإفهام في الخطاب النبوي فيقول: "المفهوم أربعة: النص، وفحوى الكلام، ولحن القول، ومفهوم اللفظ. وفحوى الكلام ما دل على ما هو أقوى من نطقه [والمقصود: الهدي الشريف في كلماته]، ولحن القول ما دل على مثل نطقه [وهي الكلمات المؤدية للمعنى كما يجب]، ومفهوم اللفظ مأخوذ من معنى نطقه [الوضوح وسهولة التلقي]، فهذه الأربعة مفهومة المعاني بألفاظها، مستقلة بذواتها، معلومة المراد بظواهرها، فلا احتياج بعد البلاغ إلى بيانه" [٨١]. فلا يحتاج السامع / المتلقي إلى شرح لما يقوله المصطفى، وكيف له ذلك والرسول معلم، مفسر، شارح للقرآن وهدي الإسلام، فهل يحتاج المعلم الماهر إلى شارح له ؟!

٧٩) السابق، ص٥٠.
٨٠) أعلام النبوة، ص٥٠.
٨١) السابق، ص٥٠.

وقال اللّه تبارك وتعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [٨٢] ويعلق الجاحظ على هذه الآية الكريمة بقوله: لأنَّ مدار الأمر على البيان والتبيُّن وعلى الإفهام والتَّفهُّم وكلّما كان اللّسانُ أبْيَنَ كان أحمدَ، كما أنّه كلما كان القلبُ أشدّ استبانةً كان أحمد، والمفهمُ لك والمتفهِّم عنك شريكان في الفضل، إلاّ أنّ المفهِم أفضل من المتفهِّم وكذلك المعلِّم والمتعلِّم هكذا ظاهرُ هذه القضية وجمهور هذه الحكومة إلا في الخاصّ الذي لا يُذكَر والقليلِ الذي لا يُشهرَ"[٨٣].

والمحدد "الخامس: العلم بوجوب طاعته، ليعلم بها وجوب أوامره "[٨٤] وهذا المحدد هو الناتج المنطقي والمحصلة النهائية للمحددات الأربعة السابقة عليه، فبعدما اكتملت عناصر الخطاب النبوي: الصدق، الإبانة، الترغيب وطيب الخلق، السلاسة في القول، يكون المحدد الخامس متصلا بالمستقبل/ المتلقي المسلم، الذي يجب عليه أن يتلقى هذا الخطاب بالقبول والتطبيق، واتباع هديه، دون معارضة أو نفي.

٥) الآيات القرآنية والخطاب النبوي:

جاءت آيات القرآن الكريم عن الرسول ﷺ مركزة على أخلاقه العليا، وأنه نعم الأسوة لأصحابه وللعالمين جميعًا، فكانت الآيات الكريمة شهادات ربانية في أخلاق الرسول العليا، ونلاحظ أن الآيات التي تناولت الشمائل المحمدية جاءت بصيغة تقريرية مباشرة، تثبت الخلق الكريم، وتنفي الغلظة والجفاء، وتوصي بالتراحم والمشاورة وحسن الخطاب.

فالمولى تبارك وتعالى ينعت نبيه من فوق سبع سموات بشهادة ربانية: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ }[٨٥] وقد جاء في تفسير الآية: إنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام،

---

٨٢) سورة إبراهيم، الآية (٤).

٨٣) البيان والتبيين، الجاحظ، أبو عثمان بن بحر، نشر : موقع المكتبة الإسلامية قسم التراث الإسلامي، http://www.al-eman.com، ج١.

٨٤) أعلام النبوة، ص٥٠.

٨٥) سورة القلم، الآية (٤)

أو لعلى أدبٍ عظيم وكما وسمت السيدة عائشة رضي الله عنها المصطفى بقولها: "كان خُلُقه القرآن" وفي رواية: أجابت السيدة عائشة عن سؤال وجّه إليها "كيف كان خُلُق الرسول؟ فقالت للسائل: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خُلُق رسول الله ﷺ كان القرآن" (٨٦).

وهذا دليل على أن الرسول كان متمثلاً مطبقًا لهدي القرآن وتعاليمه، واتخذه سجايا وسلوكًا له، وكما يشير ابن كثير إلى أن: "خلقًا تطبّعه ﷺ وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعَلَه، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل(٨٧).

وفي رواية أخرى، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سألتُ عائشة عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: "كان خُلقه القرآن يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه". وردَّتْ على سؤالٍ آخر، قالت: كان خُلق رسول الله ﷺ القرآن ثم قالت: أتقرأ سورة المؤمنين إلى العرش، قال: نعم، قالت: هكذا كان خُلق رسول الله ﷺ (٨٨).

ويتوقف الشهيد سيد قطب – هو يستظل بالقرآن – عند النعت الرباني لرسوله بأنه على خُلق عظيم فيقول إن هذه الآية "تحمل الشهادة الكبرى والتكريم العظيم... وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم ﷺ، ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود، ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود" (٨٩).

وتبرز عظمة الرسول ﷺ في هذه الآية الكريمة في عدة نواحٍ: "تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال، يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله. وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة

---

٨٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٤، ص ٤٧٦ ، وكان السائل للسيدة عائشة رضي الله عنها هو سعد بن هشام.

٨٧) السابق، ج٤، ص ٤٧٧.

٨٨) شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، الإمام ابن كثير، تحقيق : مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٧م، ص٥٨، ٥٩.

(٨٩) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، دون تاريخ، ج٦، ص ٣٦٥٦.

محمدﷺ لتلقيها، وهو يعلم من ربه هذا، قائل هذه الكلمة. ما هو؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته؟ ما مداها؟ ما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين. إن إطاقة محمد ﷺ لتلقي هذه الكلمة من هذا المصدر، وهو ثابت، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل – ولو أنها ثناء – ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب.. تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن.. هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل"(٩٠).

وفي قوله تعالى: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً }(٩١) نعتٌ للرسول بأنه أسوة حسنة، فهذه الآية: "أصلٌ كبيرٌ في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله... أي هلاّ اقتديتم به وتأسيتم بشمائله"(٩٢) فالأُسوة هي القدوة، والرسول كان الأنموذج الأنقى والأصفى لأصحابه، وهو في دعوته ليس منظِّرًا فيلسوفًا بضاعته الكلام، بل مربيًا هاديًا داعيًا، قولاً وفعلاً، وسلوكًا طيبًا في قدوته لأصحابه، وتنبه الآية الكريمة الجماعة المؤمنة الراجية رضا الله والنجاة يوم القيامة أن تتأسى بالرسول ﷺ، في حياتها.

وروى البراء بن عازب، قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسن الناس خلقًا". وقال أيضًا: " إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق"(٩٣).

يقول المولى تعالى أيضًا: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (٩٤). تعطي الآية الكريمة وصفًا عامًا لأخلاق الرسول في تعامله مع الجماعة المؤمنة، ورغم أن مناسبة نزولها هي مخالفة بعض صحابة رسول الله ﷺ لأوامر الرسول في غزوة أحد مما تسبب في الهزيمة، ولكننا نرى القيادة الحكيمة من قِبَل الرسول ﷺ لأصحابه بالخلق الطيب، والقلب

---

(٩٠) السابق، ص٣٦٥٦.
(٩١) سورة الأحزاب، الآية (٢١).
(٩٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٣، ص٥٣٤.
(٩٣) شمائل الرسول ودلائل نبوته، ابن كثير، ص٥٩.
(٩٤) آل عمران، الآية (١٥٩)

الرحيم[٩٥]. وتركّز الآية الكريمة على أن الرحمة خلق أودعه الله تعالى في قلب رسوله، ولفظ "رحمة" يخصصها، إلا أن أبا حامد الغزالي يرى أن الآية دالة على "حسن الخُلُق" بشكلٍ عام [٩٦] وهي رؤية عامة، فحسن الخلق في الآية يتفق مع مناسبة النزول، فإن حسن معاملة الرسول لمن خالفوا أوامره لا يقتصر على خلق الرحمة، بل ينصرف إلى أخلاق أخرى، يستلزمها التعامل في مثل هذه المواقف مع المخالفين وهم من الصحابة عليهم الرضوان، وهذا ما كشفت عنه الآية الكريمة {وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ} فلفظة: "فظ" – لغةً – بمعنى: قاطع القرابة [٩٧] وبمعنى الغلظة والعنف والجفاء [٩٨]، و"غليظ القلب" هو من لا يتأثر بمن حوله ولا يقيم لهم وزنًا، فقد ربطت الآية الكريمة خلق الرحمة بأخلاق أخرى، تمثل دعائم لمفهوم الرحمة، ومظاهرها وتشمل: لين الجانب، والتواضع للناس ومغفرة زلاتهم.

وهذا ما أكده الزمخشري بقوله: ".. ومعنى الرحمة: ربطه على جأشه وتوفيقه للرفق والتلطف بهم حتى أثابهم غمًّا بغمٍّ وآساهم بالمباثة بعد ما خالفوه وعصوا أمره وانهزموا وتركوه (ولو كنت فظًا) جافيًا، (غليظ القلب) قاسيه (لانفضوا من حولك) لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم، (فاعف عنهم) فيما يختص بك، (واستغفر لهم) فيما يختص بحق الله إتمامًا للشفقة عليهم (وشاورهم في الأمر) يعني في أمر الحرب ونحوه" [٩٩].

وفي قوله تعالى: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}[١٠٠]. يتوجه خطاب الآية الكريمة إلى الجماعة المؤمنة، يذكّرهم المولى تعالى أن محمدًا ﷺ من نفس جنسهم ومن أصلهم، أي عربي

---

(٩٥) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م، ج١، ص٢٠٢.
(٩٦) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، الدار العلمية، بيروت، د ت، ج٢،ص٨٢.
٩٧) أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق : عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ص ١٦٣.
(٩٨) أساس البلاغة، ص٣٥٥.
(٩٩) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة،١٣٨٥هـ، ١٩٦٦م، ص٢١٦.
١٠٠) سورة التوبة، الآية (١٢٨).

قرشي، مبلغًا رسالة الله تعالى، ويشق عليه عنتهم (العنت: المشقة ولقاء المكروه) ويعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشقيها، وهو ﷺ حريصٌ على هداية أمته، يبغى النفع الدنيوي والأخروي لها [١٠١] ولفظة "حريص" –لغويًا– تدل على شدة مراد الشيء والمبالغة في الاستمساك به، وصيانته ابتغاء النفع والخير له [١٠٢]، وهي ذات إيحاء نفسي؛ والمعنى دقيق، فالرسول يتفطر قلبه على الكافرين، فما بالنا بشعوره نحو المؤمنين الذين اتبعوه، وما بالنا بقومه وهو على قرابة ونسب معهم، وهو في كل ذلك يخاطبهم برفق، حتى يتسلل الإيمان إلى قلوبهم، ويشعرون بسمو الهداية.

وفي قوله تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }[١٠٣]. فالله تَعَالَى يأمر رَسُوله مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَدْعُو الْخَلْق إِلَى اللَّه بِالْحِكْمَةِ. قَالَ اِبْن جَرِير وَهُوَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنْ الْكِتَاب وَالسُّنَّة وَالْمَوْعِظَة الْحَسَنَة أَيْ بِمَا فِيهِ مِنْ الزَّوَاجِر وَالْوَقَائِع بِالنَّاسِ ذَكَّرَهُمْ بِهَا لِيَحْذَرُوا بَأْس اللَّه تَعَالَى وَقَوْله "وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن" أَيْ مَنْ اِحْتَاجَ مِنْهُمْ إِلَى مُنَاظَرَة وَجِدَال فَلْيَكُنْ بِالْوَجْهِ الْحَسَن بِرِفْقٍ وَلِين وَحُسْن خِطَاب كَقَوْلِهِ تَعَالَى "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْل الْكِتَاب إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ" الْآيَة فَأَمَرَهُ تَعَالَى بِلِينِ الْجَانِب كَمَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى وَهَارُون عَلَيْهِمَا السَّلَام حِين بَعَثَهُمَا إِلَى فِرْعَوْن فِي قَوْله "فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّر أَوْ يَخْشَى" وَقَوْله "إِنَّ رَبّك هُوَ أَعْلَم بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيله" الْآيَة. أَيْ قَدَّمَ عِلْم الشَّقِيّ مِنْهُمْ وَالسَّعِيد وكَتَبَ ذَلِكَ عِنْده وَفَرَغَ مِنْهُ فَادْعُهُمْ إِلَى اللَّه وَلَا تُذْهِب نَفْسك عَلَى مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ حَسَرَات فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْك هُدَاهُمْ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِير عَلَيْك الْبَلَاغ وَعَلَيْنَا الْحِسَاب "إِنَّك لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت" "لَيْسَ عَلَيْك هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّه يَهْدِي مَنْ يَشَاء" [١٠٤].

---

(١٠١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص٤٥٩.
(١٠٢) لسان العرب، مرجع سابق،، مادة حرص ج٧، ص١١، ولفظة "حريص "، صيغة مبالغة على وزن فعيل.
١٠٣) سورة النحل، الآية(١٢٥)
١٠٤) تفسير ابن كثير، م س، ج٢، تفسير الآية ١٢٥ من سورة النحل.

٦) سمات أسلوب الرسول ﷺ :

للرسول ﷺ سمات أسلوبية متعددة في حواره نطقا وأداء، يمكن أن نجملها في سمتين:

الأولى: الفصاحة:

تميز أسلوب الرسول اللغوي بسمة الفصاحة، وهي التي جعلته شديد التميز حين يحادث الناس ويحاورهم. ففصاحة منطوق الرسول يشكلّ جزءا من تحديه للكافرين، بحكم تأثره ﷺ بالإعجاز القرآني في البلاغة والتأليف، وبالبيئة اللغوية المحيطة به، وهي عالية الذائقة، سريعة الفهم والتلقي، ولننظر إلى مستوى الشعر الجاهلي الذي كان نموذجا في النظم الرفيع، فلما جاء القرآن بآياته أعجز العرب، ولما رأى المسلمون بيان الرسول ﷺ وفصاحته تعلقوا بمصاحبته، ورغبوا في الحوار معه في كل زمان ومكان، وقد كانت فصاحته ﷺ وسيلة مضافة للإقناع بأيسر عبارة، وأرقى طرح، وأفصح أسلوب.

والفصاحة "صفة تجتمع لكلام، ولهيئة النطق بالكلام ولموضوع الكلام.. أما فصاحة محمد فقد تكاملت له في كلامه، وفي هيئة نطقه بكلامه وفي موضوع كلامه" (١٠٥) وهذا يعني أن الفصاحة لا تقتصر على طريقة النطق العربي الفصيح، والرسول نموذجًا فيها بنطقه السامي للألفاظ العربية، فقد كان محمد ﷺ: "أعربي اللسان، فله من اللسان العربي أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة وهذه هي فصاحة الكلام، فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه، واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها، فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم" (١٠٦). كذلك لا تقتصر على اختيار الكلمات العربية الصافية المنبع دون تكلف أو توعر، والرسول هو قدوة البلغاء في الكلمات المنتقاة، بل يضاف إليها المعنى السامي الشريف،

١٠٥) عبقرية محمد، العقاد، م س، ص٣٠.
١٠٦) عبقرية محمد، ص٣١.

وهذا ما يبزُّ فيها المفكرين والمصلحين والفلاسفة، ذلك أنه كان مرسلاً من الله تعالى، بأعظم رسالة، وأثقل أمانة.

يقول الله تعالى: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}(١٠٧). يَقُول تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمَا يَنْطِق مُحَمَّد بِهَذَا الْقُرْآن عَنْ هَوَاهُ {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} يَقُول: مَا هَذَا الْقُرْآن إِلَّا وَحْي مِنَ اللَّه يُوحِيهِ إِلَيْهِ. قَوْله: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى}: أَيْ مَا يَنْطِق عَنْ هَوَاهُ {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} قَالَ: يُوحِي اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى جَبْرَائِيل , وَيُوحِي جِبْرِيل إِلَى مُحَمَّد صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقِيلَ: عَنَى بِقَوْلِهِ: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى} بِالْهَوَى (١٠٨). وجاء في تفسير القرطبي: "قَدْ يَحْتَجّ بِهَذِهِ الْآيَة مَنْ لَا يُجَوِّز لِرَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الِاجْتِهَاد فِي الْحَوَادِث. وَفِيهَا أَيْضًا دَلَالَة عَلَى أَنَّ السُّنَّة كَالْوَحْيِ الْمُنَزَّل فِي الْعَمَل"(١٠٩).

وبالتالي تكون الفصاحة وفقًا للمفهوم السابق ذات أضلاع ثلاثة: هيئة النطق العربي الأصيل، روعة التركيب وأصالة اللفظ وجمال التعبير، عظم المعنى وتساميه.

السمة الثانية: المنطق العذب:

فقد كان الرسول ﷺ ذا جاذبية خاصة لمستمعيه، كلامًا، وأسرعهم أداءً، وأحلاهم منطقًا. وهذا له تأثير كبير في جذب الآذان، وانفتاح القلوب، ورهافة العقول، لذا كان الناس يسعون إلى مصاحبته أطول الفترات، استئناسا بحديثه، وإفادةً من هديه. يقول الإمام ابن القيم: "إن كلامه يأخذ القلوب، ويسبي الأرواح، ويشهد له بذلك أعداؤه، وكان إذا تكلم تكلم بكلام مفصل، مبين، يعدّ العاد ليس بهذا مسرع، ولا يحفظ، ولا منقطع تخلله السكتات بين أفراد الكلام، بل هديه فيه أكمل الهدي" (١١٠)، وكما تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم

١٠٧) سورة النجم، الآيتان (٣، ٤).
١٠٨) تفسير الطبري، مصدر سابق، سورة النجم الآيتان ٣، ٤.
١٠٩) تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة النجم، الآيتان ٣، ٤.
١١٠)) زاد المعاد في هدي خير العباد، الإمام شمس الدين بن أبي بكر، بن قيم الجَوزيَة، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ج١، ص٦٦.

هذا، ولكن كان يتكلم بكلام يبينه فصل، يحفظه من جلس إليه، وكان كثيرًا ما يعيد الكلام ثلاثا ليُعقَل عنه" (١١١). وهذا يعني أن الرسول ﷺ كان:- يتكلم بوضوح دون تقعر أو غموض في المعنى أو اللفظ.

- كلامه قليل اللفظ، غير مكثر.
- يتمهل في نطقه دون إسراع يضيع المعنى ويفقد السامع التواصل، أو بطء يملّ السامع، ويفقده الانتباه.
- كان يعيد كلامه حتى يعي السامع مقولته، وهذا ما أدى لحفظ أحاديثه في الصدور، وتناقلتها الألسنة بنصها.

أيضًا، كان المصطفى ﷺ "طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم... لا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه. وكان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين، ومصلحتهم" (١١٢). وهذا يعني أن الرسول ﷺ كان:

- سمته الصمت، والصمت يعطي هيبة كبرى لصاحبه، ويجعل الآذان تنصت حينما يهم بالكلام.
- ليس ثرثارا، وإنما يتكلم إذا سئل، أو كانت له حاجة.
- إذا تكلم فو ذو نطق واضح، تظهر الكلمات بوضوح في حديثه.
- يتكلم بالخير، وهذا مفتاح الثواب من الله، لأنه داع للهدى والخيرات.

يراعي القضايا الآنية التي تهم من أمامه، فلا يتكلم بما ليس في حاجة المخاطب من هموم أو تساؤلات.

وفي الفصل الثاني، سيتم تناول أبرز الأشكال التي جاء حوار الرسول ﷺ، وهي متعددة بتعدد المواقف والأشخاص والموضوعات.

---

١١١) السابق، ص٦٦.
١١٢) السابق، ص٦٨.



أشكال الحوار وبنيته في السيرة النبوية

اتخذ الحوار بين الرسول ﷺ، ومَن حوله أشكالاً وطُرقًا عدة، حسب طبيعة القضية المطروحة من قبل الرسول ﷺ أو ما يطرحه الآخرون عليه من أمور ومستجدات وأسئلة ومواقف. ومن الأهمية بمكان عرض القالب الحواري، فهو مرتبط بالقضايا المطروحة، ويعبِّر عن طبيعة العلاقة بين الرسول وبين من يحاورهم.

ولكي تتضح الصورة أكثر في كيفية تكوين القالب الحواري النبوي، تجدر الإشارة إلى أن الرسول ﷺ كان مُعلمًا متحرِّكًا، في مدرسة دون جدار، فصولها: المسجد والشارع والمنزل والسوق والغزوة، أي هي مفتوحة على المجتمع بأسره، بمختلف أطيافه، وفئاته، وجماعاته. وهذا الحوار بدأ منذ الدعوة في مكة المكرمة، وكان المجتمع حوله ﷺ وثنيًا ومشركًا، إلا الفئة القليلة التي آمنت وثبتت مع النبي ﷺ، وفي نفس الوقت هم أهله وعشيرته وأقرباؤه، ومكة الموطن الذي وُلِد وعاش فيه الرسول ﷺ، وفيه بُعث ومنه هاجر ثم عاد فاتحًا منتصرًا، فطبيعة الحوار وقضاياه كانت متصلة بالمجتمع المكي. فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة كان المجتمع مختلفًا، فيثرب / المدينة كانت مؤمنة بالدعوة الإسلامية قبل قدوم المصطفى ﷺ بفضل الله ثم جهود مصعب بن عمير رضي الله عنه في نشر الإسلام بين أبناء يثرب وهم العرب في قبيلتي الأوس والخزرج، ولكن على أطراف المدينة وجدت تجمعات يهودية مثل بني النضير وبني قينقاع وخيبر. وبعبارة أخرى، فإن الحوار النبوي تشكل حسب البيئة المكانية، والفترة الزمانية، وطبيعة الشخصيات والجماعات التي حاورت الرسول ﷺ.

ويمكن أن نوضح أبرز أشكال الحوار النبوي في أربعة مباحث:

١) استخدام الجوارح في الحوار.

٢) الاستفهام.

٣) الحدث والتعليق.

٤) القصة نموذجا للحوار.

المبحث الأول

استخدام الجوارح في الحوار

ويقصد به حضور أعضاء الجسد في الحوار، وهي جزء أساس من مكملات الحوار، لا ينفك عنه، ومن المهم أن يدخل هذا في تحليل الخطاب الحواري. وهي ما تسمى في علم الاتصال المعاصر بتسميات عدة مثل: علم الاتصال غير اللفظي، واللغة الجسدية، والكلام الجسدي، والحركة الجسدية، والسلوك الحركي، والعلامات الحركية [١١٣]. وتدور في مجملها حول تفسير وتأويل تعبيرات الجسد، بوصفها وسيلة مكملة للحوار المنطوق، فاللسان جزء من عدة أجزاء تظهر في السلوك الحواري [١١٤].

وبالطبع فإن الاتصال باستخدام الجوارح أساس في الحوار الشفاهي، ذلك لأن الرسول (منشيء النص والحوار) كان يتعمد أو لا يتعمد استخدام بعض جوارحه في حديثه، وإن تمَّ تدوين فعل الجوارح كتابيًا بعد ذلك، فهذا تمَّ لأن حركة الجوارح جزء من الحوار ذاته. قد حرص مدونو الأحاديث الشريفة وأحداث السيرة النبوية على الوصف الدقيق لأحوال الرسول ﷺ الحركية والسلوكية، فبتنا أمام نصوص جمعت القول والسلوك الحركي، ويتعين على دارس النص النبوي أن يدخل في حسبانه سلوك المصطفى ﷺ في حواراته ومواقفه.

لقد كان لدى المصطفى ﷺ وعيٌ كبيرٌ بما يسمى "محددات التعبير الجسدي" وهي تتناول تعبيرات الجسد في ضوء الظروف الاجتماعية وملابسات الموقف والعُرف والعادة، مثل طريقة الإصغاء والنظر للمتكلم ونبرة الكلام خُفوتًا وارتفاعًا، وأيضًا الحركات السلبية مثل الاستنكار بالنظرات والرفض باليد والإدانة

---

١١٣) العبارة والإشارة : دراسة في نظرية الاتصال، د. محمد العبد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م، ص١١٤.

١١٤) السابق، ص١١٣.

بالانسحاب من المكان وغير ذلك [١١٥]. فقد كان الرسول "إذا كره الشيء عرف في وجهه... وكان طويل السكوت، ولم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخَّابًا" [١١٦]. وكان "إذا خطب (لأمرٍ جلل) احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه" [١١٧] في إشارة إلى عظم الأمر، وأهمية القضية، خاصة إذا كان في أمر يخالف شرع الله تعالى.

وستتم دراسة هذا المنحى عبر ثلاثة محاور، تتصل بزمن الحوار: قبل وأثناء وبعد الحوار.

أ) ما قبل الحوار المنطوق:

وهي أول محددات الاتصال غير المنطوق، وتتصل بكيفية تكوين الرسالة والخطاب النبوي، وكيف كان المصطفى ﷺ حريصًا على جذب الذات المتلقية، وتشويقها للنصح والإرشاد دون إرهاق أو عنت أو كثرة في القول. ونرى هذا في شهادة الصحابة عليهم الرضوان حول النهج النبوي الشريف في اختيار الوقت والموقف.

– من ذلك: ما يذكره ابن مسعود ﷺ قال: كان النبي ﷺ يتخوّلنا بالموعظة كراهة السآمة علينا[١١٨]. فاختيار الوقت للموعظة عامل مهم في تقبلها، وأيضًا مراعاة المكان والحالة النفسية للسامعين حاسم، فالنفس البشرية تنفر من تراكم المواعظ، وتعدد الدروس، كما أن كثرة الوعظ قد ينسي بعضه البعض. ويبدو أن هذا المحدد الاتصالي غير مباشر في تحليل الخطاب النبوي، أي تحليل ما يقال، ولكنه مؤثر في فهم طبيعة منشيء الرسالة الحوارية وهو الرسول ﷺ، وهذا نقطة

---

١١٥) العبارة والإشارة، ص١٥٦، ١٥٧.

١١٦) زاد المعاد، ج١، ص٦٦.

١١٧) زاد المعاد، ج١، ص٦٧.

١١٨) صحيح البخاري، المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق وشرح وترقيم ومراجعة : محب الدين الخطيب، محمد فؤاد عبد الباقي، وقصي محب الدين الخطيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج١، ص٤٢، رقم (٦٨)، كتاب العلم.

تتصل بما قبل المنطوق، لأنها توضح سلوك الرسول اللغوي، وكيف كان عليما ببواطن النفس البشرية وخبايا تقلباتها.

– وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كانت رسول الله ﷺ إذا أمَرَهم، أمرَهم من الأعمال بما يطيقون. قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فيغضب ﷺ حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول: إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا (١١٩).

في الحديث السابق إضافة معرفية جديدة، تتصل بالعمل المكلف به المؤمن، فإذا كان الرسول يتحرج من كثرة النصيحة، ويتخوّل الناس بها، فهو أيضًا لا يأمرهم من الأفعال العملية العبادية بالكثير؛ تخفيفًا عليهم. وحينما يعترضون مطالبين بالمزيد يغضب، ويبدو الغضب في قسماته، مؤكدًا أنه أعلم وأتقى منهم وهو حريص عليهم. وظهور الغضب في وجهه ﷺ دال على كراهيته الإثقال على الناس، ورغبته أن يقوموا بما يطيقون من عمل، فما قلَّ وكفي خيرٌ مما كثر وألهى.

– عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلتُ يا رسول الله، إني رجلٌ شابٌّ، وأنا أخاف على نفسي العنت [هو المشقة والدلالة هنا كناية عن الإثم] ولا أجد ما ما أتزوج به النساء. فسكت [النبي] عني، ثم قلت مثل ذلك، فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك، فقال النبي ﷺ: يا أبا هريرة جفَّ القلم بما أنت لاقٍ، فاختص على ذلك أو ذر" (١٢٠). والمقصود: لابد من نفاذ الأمر المقدر سواء اشتكى أبو هريرة أو لم يشتكِ. وهنا نجد أن الرسول ﷺ سكت ثلاث مرات، لعلّ أبا هريرة يدرك المغزى، فلما كرر السؤال، أوضح الرسول الموقف ببلاغة موجزة، مستعملا الكناية "جفَّ القلم"، في إشارة إلى أن الأمر حُسِم، فعليه أن يحتمل مشقة البُعد عن النساء حتى تتحقق مشيئة الله تعالى وما قدَّره جلَّ وعلا له.

---

١١٩) صحيح البخاري، ج١، ص٢٣، رقم ٢٠، كتاب الإيمان.
١٢٠) صحيح البخاري، ج٣، ص٣٥٧، رقم ٥٠٧٦، كتاب النكاح. والشرح للمحققين.

ب) ما يصاحب الحوار المنطوق:

ويتناول الإشارات الجسدية المعبِّرة، التي تقدِّم موافقة أو نفيًا أو إكمالاً للمنطوق في معناه، وتكون في عمومها مصاحبة له.

– فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "يقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج" قيل يا رسول الله، وما الهرج؟ فقال: هكذا –بيده فحرَّفها– كأنه يريد القتل" (١٢١).

إنَّ حركة اليد هنا أغنت عن الإجابة، فهي تشير لفعل القتل، وهو أشد حالات الهرج والفتنة، فجاءت الحركة إجابة عن سؤال، دون ذكر اللفظ المقصود، وحملت في الوقت ذاته إدانة خفية للفتنة، التي قد تصل بالناس إلى القتل.

– وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سُئِل في حجته فقال [يقصد السائل]: ذبحتُ قبل أن أرمي، فأومأ بيده، قال: ولا حرج. قال [السائل]: حلقتُ قبل أن أذبح، فأومأ بيده: ولا حرج (١٢٢).

وهنا نجد أن الإجابة عن السؤال الأول جاءت باليد والقول معًا: الإيماء باليد بالموافقة، ثم نطق "ولا حرج"، بينما في السؤال الثاني اكتفى الرسول ﷺ بالإيماء فقط. وهذا عائد إلى طبيعة الموقف ذاته، فالناس في حج، والكل متجمع حول الرسول ﷺ، وقد تُغني الإشارة عن المقولة في هذا التزاحم، والإشارة تصل لجمهور أكبر، ذلك أن العين تدرك من بعيد ما لا تسمعه الأذن، وأيضًا حرصٌ منه ﷺ على الإجابة عن كل استفسار.

وقد تأتي الحركة الجسدية تأكيدًا وتوضيحًا للمعنى المقدم في القول.

– عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" وشبّك أصابعه (١٢٣).

---

١٢١) صحيح البخاري، ج١، ص٤٧، رقم ٨٤ ، كتاب العلم.
١٢٢) صحيح البخاري، ج١، ص٤٧، رقم ٨٣، كتاب العلم.
١٢٣) صحيح البخاري، ج١، ص١٧١، رقم ٤٨١، كتاب الصلاة.

فالمعنى المقصود ذُكِر في المتن القولي وهو التأكيد على لُحمة الجماعة المؤمنة، ممثلة في اللبنة الأولى وهي المؤمن الفرد في علاقته مع أخيه المؤمن، واشتمل القول على تشبيه سهل، وهو تشبيه مُستقى من النبع القرآني من قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ}(١٢٤). والتشبيه بالصف ورد في السياق القرآني في معرض أن الله تعالى يحب المؤمنين المجاهدين في سبيله، فهم مثل البنيان المرصوص. ولكن الرسول ﷺ يستحضر التشبيه القرآني في ذاكرة السامع، موسعًا دلالة التشبيه إلى فضاء أرحب وأشمل، وهو فضاء الحياة المدنية اليومية. ثم جاءت حركة الأصابع المشبَّكة، عقب الانتهاء من المنطوق، لتؤكد الدلالة، وتوضح أن البنيان إنما هو لبنات متفرقة جُمِعَت، مثل وحدة الكفين، ومن أصابع متفرقة التأمت.

– وعن سهل قال: قال رسول الله ﷺ: "بُعثتُ أنا والساعة كهاتين" ويشير بإصبعيه فيمدهما. وفي رواية أخرى عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: "بُعثتُ أنا والساعة كهاتين". وفي رواية ثالثة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "بُعثتُ أنا والساعة كهاتين. يعني إصبعين" (١٢٥).

يشمل هذا الحديث الشريف رؤية ممتدة عبر الزمان، الماضي السحيق والحاضر والمستقبل القريب، فالرسول ﷺ علامة من علامات الساعة / يوم القيامة، هذا قياس بعمر الكون، الذي يمتد إلى ملايين السنين، فظهور النبي ﷺ يعني أن نهاية الكون باتت قريبة، في عُرف التاريخ البشري، وقد أفاض ﷺ في أحاديث أخرى عن علامات الساعة، ولكنه في هذا الحديث يقف عند العلامة الكبرى، وهي بعثه بالقرآن الكريم، الذي حمل الرسالة الخاتمة الشاملة الهادية لكل البشر، فلم يبق أمام البشر إلا الإيمان به، فقد باتت النهاية قريبة، للجنس البشري على الأرض، ربما تكون آلافًا من السنين، ولكنها في مجملها قريبة بشكل كبير قياسًا بعمر الكون. جاءت حركة إصبعي الرسول ﷺ في حالة المدِّ والضمِّ إفهامًا

١٢٤) سورة الصف، الآية (٤).

١٢٥) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٢ الأحاديث رقم : ٦٥٠٣، ٦٥٠٤، ٦٥٠٥،كتاب الرقاق.

واضحًا للسامع بهذا المنظور الزمني المعقد، والذي تُتعَب العقول في إدراك أبعاده، ولكن بحسب الإنسان أن يدرك أنه مؤمن بالرسالة الخاتمة، رسالة التوحيد التي لا رسالة ولا رسول بعدها.

– عن خالد بن الوليد ﵁ قال: أتى النبي ﷺ بضبٍّ مشوي، فأهوى إليه ليأكل، فقيل له: إنه ضبّ، فأمسك يده. فقال خالد: أحرامٌ هو؟ قال: لا، ولكنه لا يكون بأرض قومي، فأجدني أعافه. فأكل خالد ورسول الله ﷺ ينظر" (١٢٦).

إننا هنا أمام حكم شرعي جاء منطوقًا، ومصاحبًا برضا الرسول ﷺ، فكون الرسول عافى أكل الضب، فلأنه غير معتاد عليه، لأنه غير متواجد بالأرض التي نشأ فيها الرسول ﷺ، وهذا لا يعني تحريمه، ردًّا على سؤال خالد، فأكل خالد، والرسول ينظر إليه. ونرى سلوك الرسول ﷺ بتصرفين: الأول معافاته الطعام فور سماعه بما هو، وهو تصرف فردي غير مرتبط بالحكم الشرعي الذي أوضحه بالمنطوق الحواري، ثم بقاؤه في المكان ونظره لخالد وهو يأكل، تعضيدًا للحكم الشرعي الذي أطلقه الرسول ﷺ.

ج) ما بعد الحوار المنطوق:

ويتناول الحركات التي أحدثها الرسول ﷺ عقب الانتهاء من حواره، أو تعقيبه على بعض الأمور.

– فعن عمر بن سعيد قال: أخبرني ابن أبي مُلَيكة، أن أبا عمرو ذكوان مولى عائشة أخبره أن عائشة ﵂ كانت تقول: إن رسول الله ﷺ كان بين يديه ركوة – أو علبة فيها ماء يشك عمر – فجعل يدخل يده في الماء، فيمسح بها وجهه ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات، ثم نصب يده فجعل يقول: في الرفيق الأعلى، حتى قبض ومالت يده"(١٢٧). يصف الحديث حالة وفاة الرسول ﷺ في اللحظات الأخيرة، وقد كانت أعين السيدة عائشة التي توفي الرسول في حجرها مسلطة على

١٢٦) صحيح البخاري، ج٣، ص٤٣٥، ٤٣٦، رقم ٥٤٠٠، كتاب الأطعمة.
١٢٧) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٣، رقم ٦٥١٠، والركوة من الأدم والعلبة من الخشب

سلوك المصطفى في لحظات احتضاره، ونقلت بأمانة هذه اللحظات، كان ﷺ يمسح بالماء وجهه، ويعلمنا ببشريته، وأنه يعاني من سكرات الموت وهو الحبيب المصطفى من قبل الله تعالى، ويظل ذاكرًا الشهادة التي تحمل خلاصة رسالته وهي التوحيد، مردِّدًا إياها، رافعًا يده، مستحضرًا الله تعالى أمام عينيه (في الرفيق الأعلى)، ونرى مشهد الوفاة، حيث قُبِض فعرفت السيدة عائشة ذلك بميل يده التي كانت منتصبة في إشارة على الحياة، فلما مالت حملت إشارة الموت. هنا نجد حوارًا بشكل مختلف، إنه كلمات نطقها الرسول في لحظات وفاته ﷺ، ولكنها كانت لونًا من الحوار الذاتي، والرسول مقبل على اللحاق بالرفيق الأعلى، فكانت كلماته الأخيرة تعلمنا أن على المسلم أن يلفظ الشهادة ويتحضر الذات الإلهية وهو في لحظات الوداع.

– وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رجال من الأعراب جفاة، يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم، فيقول: أن يعش هذا لا يدركه الهرمُ حتى تقوم عليكم ساعتكم"[١٢٨].

الأعراب الجفاة يخوضون فيما لا علم لهم ولا للرسول ﷺ به، وهو موعد قيام الساعة، ولم تأت إجابة الرسول بنفي العلم كما يتوقع المستمع، بقدر ما جاءت بطريقة مختلفة، لقد حوّلت التساؤل من المنحى الجدلي الذي لا ينبني عليه عمل – في حالة نفي الرسول لعلمه بموعد يوم القيامة– إلى حالة من الفهم الإيجابي لساعة المرء الحقيقية، وهي عند موته، فلا يعني المسلم متى تقوم يوم القيامة: بعد عام أو ألف أو مليون، بقدر ما يعنيه ماذا قدَّم لنفسه من أعمال صالحة يوم القيامة، وقد جاءت إجابة الرسول مذكرةً هؤلاء بموعد ساعتهم "فالمراد ساعة المخاطبين... و[الساعة] الصغرى موت الإنسان فساعة كل إنسان موته" [١٢٩]، فلو عاش أصغر

---

١٢٨) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٣، رقم ٦٥١١. قال هشام (راوي الحديث) : يعني موتهم، كتاب تفسير القرآن.

١٢٩) " فتح الباري شرح صحيح البخاري "، ابن حجر العسقلاني المصري، منشور على موقع www.al-eman.com كتاب سكرات الموت : وأطلقت الساعة على ثلاثة أشياء: الساعة الكبرى وهي بعث الناس للمحاسبة والوسطى وهي موت أهل القرن الواحد نحو ما روى أنه رأى عبد الله بن أنيس فقال: إن يطل عمر هذا الغلام لم يمت حتى تقوم الساعة فقيل أنه آخر من مات من الصحابة والصغرى موت الإنسان فساعة كل إنسان موته.

السائلين سِنًّا، سيرى ساعة كل واحد منهم، وهي يوم موته، وبعد الموت: الحساب الأصغر في القبر، ثم الحساب الأكبر يوم الساعة الكبرى يوم القيامة.

جاءت نظرة الرسول إلى الأصغر سِنًّا إشارة حسية منه ﷺ فقد صحَّح المفهوم الجدلي بنظرته إلى الأصغر سِنًّا، كأنه يعيد بنظرته الفهم الحقيقي لقيامة المسلم، وهي القيامة الصغرى، "فكل من مات فقد قامت قيامته، وحان حينه"(١٣٠). وسميت القيامة الصغرى لأن القيامة الكبرى هي يوم البعث والنشور، وبعض منكري البعث (الملاحدة) يرددون أن القيامة الكبرى هي الموت، وهذا خطأ، فساعة الحساب الكبرى قادمة، وإنما الموت برزخ لها(١٣١) مصداقًا لقول الله تعالى: {.. وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} (١٣٢) والبرزخ هو ما بين الموت والبعث يوم القيامة.

– وفي غزوة حنين، كان الرسول ﷺ ثابتًا، ونقرأ ما يرويه البراء عندما سأله رجل من قيس: أفررتم مع رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال [البراء]: لكنّ الرسول ﷺ لم يفر، كانت هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاُستقبلنا بالسهام. ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان آخذ بزمامها، وهو يقول: أنا النبي لا كذب " وفي رواية: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب" (١٣٣). الموقف هنا موقف شدة وأزمة، فالمسلمون في غزوة حنين انكشفوا، وهاجمهم الكفار بضراوة، ففروا تاركين الغنائم التي ألهتهم عن القتال، وكان موقف الرسول أن ذكّرهم بنفسه وبأصله فهو النبي الذي لا كذب في دعوته، وهو ابن عبد المطلب ذي النسب العريق، وأتبع هذه الكلمات ثباتًا ورسوخًا على ناقته في المعركة، لم يفر كما فرّ المسلمون، وسرعان ما عاد المسلمون؛ لثبات نبيهم وقائدهم، وقاتلوا وانتصروا. إنه تصرف بكل جوارحه، لم يخطب فيهم، ولم يهتف بهم، بل قال كلمات قليلة، وكان الفعل هو سيد الموقف.

---

١٣٠) القيامة الصغرى، د. عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٩٨٦م، ص١١.
١٣١) السابق، ص١٢.
١٣٢) سورة المؤمنون، الآية (١٠٠).
١٣٣) صحيح البخاري، ج٣، ص١٥٤، ١٥٥، رقم ٤٣١٧، ورقم ٤٣١٥، كتاب المغازي.

وقد يغني الفعل عن القول تمامًا، فيكون هو الجواب، كما في هذا الحديث:

– قال أبو هريرة ﷺ: "أُتِيَ رسول الله ﷺ ليلة أُسريَ به بإيلياء [بيت المقدس] بقدحين من خمر ولبن فأخذ اللبن. قال جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذت الخمر غوت أمتك" (١٣٤)

لم يكن هناك سؤال من جبريل عليه السلام، بقدر ما هو اختيار من شيئين، والاختيار له مغزى، وجاء التعقيب من جبريل قولاً مؤكِّدًا المعنى المراد، واللبن غذاء أساسي للإنسان منذ الولادة وإلى الوفاة، وهذا كناية على أن الإسلام هو العقيدة الأساسية للبشر جميعًا، لا غنى عنها. وقد شرب الرسول ﷺ اللبن(١٣٥)، وهو أكثر المشروبات شيوعًا في بيئة الرسول، بحكم أنها بيئة رعوية، وهو أكثر المشروبات شيوعًا في العالم أجمع. وأيضًا البياض هو لون اللبن، وهو أحبُّ الألوان إلى رسول الله ﷺ وكان يقول: "هي خير من ثيابكم فالبسوها وكفّنوا فيها موتاكم(١٣٦).

---

١٣٤) صحيح البخاري، ج٣، ص٢٥٠، رقم ٤٧٠٩، كتاب التفسير.

١٣٥ زاد المعاد في هدي خير العباد، م س، ج١، ص٥٤.

١٣٦) المصدر السابق، ج١، ص٥١.

المبحث الثاني

الاستفهام

الاستفهام من الفهم، وفهمت الشيء عقلتُه، واستفهم أي: سأله أن يفهمه[١٣٧] ومفهوم الاستفهام بلاغيًا هو: طلب الحصول على شيء في الذهن بأدوات مخصوصة[١٣٨]. فالاستفهام يستدعي أن يطرح الفرد سؤالاً، يتعرف به عما غمض عنه، وهو ما يسمى الاستفهام الحقيقي، أما الاستفهام البلاغي فهو يتجاوز إطار السؤال والجواب إلى إفادة دلالات أخرى[١٣٩] تتصل بالموقف الحواري.

تتشكل بنية الاستفهام من علاقة نحوية، تجمع بين أطراف الأسلوب، أي بين السؤال والجواب، فالجواب يتضمن عادة نواة الإخبار المتصلة بالسؤال[١٤٠]، فإذا سألنا عن شخص، تشمل الإجابة ذكر هذا الشخص، وبعض الكلمات من السؤال أيضًا، فذكر الشخص هو النواة الإخبارية، وإن كانت تستخدم في شكل جمل مستقلة، يمكنها أن تنفصل عن السؤال.

والاستفهام – بوصفه أسلوبًا حواريًا – يستدعي أطرافًا عدة، وهي: الملفوظ ومعناه، والمتكلم والسامع[١٤١]، وهذا جانب شكلي، فلا استفهام دون وجود ألفاظ، ولا ألفاظ دون متكلم، والمتكلم المستفهِم يستلزم وجود سامع.

وبالنظر إلى أحاديث المصطفى ﷺ لا نجد نصًّا به استفهام دون وجود مستمع أو مستمعين للرسول، وأحيانًا نجد أكثر من إجابة من الرسول ﷺ عن سؤال واحد، وهذا حسب الموقف، وحسب طبيعة من يحاورهم الرسول ﷺ. وبالنظر

١٣٧) المعجم المفصل في علوم البلاغة، د. إنعام نوار عكاوي، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص١٢٢.

١٣٨) البلاغة الاصطلاحية، د. عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، القاهرة، دون طبعة، ١٩٨٩م، ص١٦٣.

١٣٩) من هذه الأغراض : التعجب والنفي والإنكار والتقرير والاستبعاد والتشويق والوعيد والتحقير والنهي... إلخ، انظر المرجع السابق، ص١٧١ – ص١٧٩، ويعلّق بقوله : " الأغراض غير متناهية بل متجددة...، والمثال الواحد يؤدي إلى غرضين أو ثلاثة" ص١٨٠

١٤٠) بنية الجملة العربية بين النظرية والتطبيق، المنصف عاشور، سلسلة اللسانيات، منشورات كلية الآداب (منوبة)، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، ص٢٠٦.

١٤١) السابق، ص٢٠٥.

إلى الأحاديث التي اشتملت على بنية الاستفهام، نجد أن الرسول ﷺ يكون في أحد موقعين؛ إمَّا سائلاً أو مسؤولاً؛ وهذا دال على طبيعة الحوار الذي كان ينتهجه المبعوث رحمة للعالمين مع الناس، فهو ليس في موضع السائل أو المسؤول دائمًا، وإنما في حالة حوارية مستمرة، حول ما يعنُّ لهم من قضايا وأمور.

وسيتم دراسة بنية الأسلوب الاستفهامي في أحاديث الرسول عبر هذين الموقعين.

أولاً: عندما يُسأَل النبي ﷺ:

حيث يكون الرسول ﷺ في موقع الطرف الذي يجيب عن أسئلة الناس، في مختلف الأمور الحياتية، من منظور شريعة الإسلام. وهذا طبيعي، فالرسول داع للخير والهدى، وهو مبعوث من الله تعالى إلى الناس، وفي الحياة الكثير من الأمور والمستجدات التي تتطلب إجابات من المنظور الشرعي، كي تصبغ الحياة بصبغة الإسلام. بناء على ذلك، فإن بنية الاستفهام ودلالاته في هذا الموقع ستقتصر على الاستفهام الحقيقي الذي يتطلب المعلومة والحُكم الشرعي، لأن المقام هنا مقام تعليم وإرشاد وإخبار، بيد أن إجابات الرسول ﷺ جمعت بلاغة رائعة، وتبيان الحكم الشرعي، ويتخذ هذا الموقع أشكالاً عدة:

أ) السؤال المباشر إلى الرسول:

ويعني أن يكون هناك استفسار موجه بشكل مباشر إلى الرسول ﷺ للاستفتاء حول أمر من الأمور.

– عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدّق وأنت صحيح حريص، تأمل الغنى، وتخشى الفقر، ولا تُمْهِل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلتَ: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان" [١٤٢].

١٤٢) صحيح البخاري، ج٢، ص٢٨٩، رقم ٢٧٤٨، كتاب الوصايا.

السؤال من الرجل بسيط، يريد أن يتعرف متى تكون الصدقة أفضل قبولاً عند الله تعالى، وفي أي أحوال الإنسان. فجاءت إجابة الرسول ﷺ تحمل منظورًا فلسفيًا إنسانيًا عاليًا، فالصدقة الحقيقية تعتمد على نية الفرد، وليست بكثرة ما يتصدق به الفرد، وكلما كانت الصدقة في وقت الغنى، حين تكون النفس شحيحة، حريصة على اكتناز المال، ولها في الحياة آمال، فإنها تكون أفضل. وهذا الرد يتضمن تربية الرسول ﷺ للنفس المؤمنة، حين تتناسى في زحام الحياة وأيام الصحة والشباب والغنى، آلام الفقير ولا تتذكر أهمية الصدقة إلا وقت غرغرة الروح. والصدقة وقت الغنى والصحة واتساع الأمل تعني فيما تعني؛ الشكر لله تعالى، لا معنى التجارة والنفعية مع الله في وقت المرض، وعند اقتراب الموت. في ختام جواب الرسول ﷺ للسائل، تصوير موقف الرجل، على فراش الموت، وهو مدرك أنه مقبل على لقاء الله، بتعبيرات أقرب للتمثيل القولي، فيوزع صدقاته على فلان، وفلان.

– وعن أسماء رضي الله عنها ، قالت: "قلتُ يا رسول الله، مالي مالٌ إلا ما أدخل عليّ الزبير [زوجها]، فأتصدّق ؟ قال: تصدقي، ولا توعي، فيوعى عليكِ" [(١٤٣)]. أي لا تحبسي المال، كما يُحبَس في الوعاء، فيحبس الله عنكم فضله.. جاء تساؤل السيدة أسماء رضي الله عنها "فأتصدق؟" متضمناً الحذف والمقصود: "فأتصدق من مال زوجي؟"، وهو حذف مفهوم من السياق، فلا مال لديها إلا ما يعطيها زوجها الزبير بن العوام رضي الله عنه فتكون إجابة الرسول بالأمر بالصدقة، علمًا أن السؤال استفهام بالهمزة، والجواب المتوقع: نعم أو لا، ولكن الجواب جاء فعل الأمر "تصدقي"، ثم التحذير من مغبة حبس المال / مال الزوج، فستكون العاقبة عليها (فيوعى عليكِ)، أي يمسك الله عنها فضله. في جواب المصطفى أمر فقهي، بجواز أن تتصدق المرأة من مال زوجها دون علمه، ما دام نزرًا يسيرًا، حسبما جرى به العُرف[(١٤٤)]، فهو

١٤٣) صحيح البخاري، ج٢، ص٢٣٤، رقم ٢٥٩٠، كتاب الهبة.

١٤٤) فقه السنة، الشيخ سيد سابق، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، ج١، ص٣١٨. وفي رواية أخرى (عن أحمد ومسلم) سألت السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما النبي فقالت: "إن الزبير (زوجها) رجل شديد،

رزق مشترك بين الزوج والزوجة، والمسؤولية تقع هنا على الزوجة، فهي المعنية بتدبير أمر المعيش والإنفاق أكثر من الزوج، وفي الجواب أيضًا، فهم لطبيعة المرأة بشكلٍ عام، ورغبتها في كنز المال، فيكون الحض على مقاومة هذا الشح، بالصدقة سواء علم الزوج أو لم يعلم، فمردوده خيرٌ على الأسرة كلها.

– عن أبي هريرة ﷺ، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك(١٤٥)

تتابعت استفسارات السائل حول الأحق بحسن الصحبة، والمعاملة الحسنة، فأكَّد الرسول ﷺ على الأم ثلاث مرات، ثم الأب، وهذا بالطبع ليس تقليلاً لدور الأب، وإنما تأكيد على دور الأب ومكانتها في مجتمع كان ينظر للمرأة نظرة أقل، ويخشى الأب وسطوته، فجاءت الإجابات موجزة، متتابعة، مؤكدة على المفهوم السابق في احترام الأم وتوقيرها مثل الأب (١٤٦).

ويبدو السؤال بالمستوى الحقيقي المباشر، المتطلب للمعلومة في أحاديث العبادات، حيث تكون الحاجة ملحة للفتوى الدينية.

– عن عبد الله بن عباس ﷺ، قال: " كان الفضل رديف النبي ﷺ، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: إن فريضة الله أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: نعم. وذلك في حجة الوداع"(١٤٧).

الموقف لا يستدعي أكثر من الجواب بكلمة، فالرسول ﷺ على الراحلة متحركًا، ويظهر أن السائلة متشككة في الأمر، فهي تريد جوابًا حاسمًا، وقد جاءها

ويأتيني المسكين فأتصدق عليه من بيته بغير إذنه، فقال رسول الله ﷺ: "ارضخي (أعطي القليل) ولا توعي فيوعي الله عليكِ".

١٤٥) صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق وشرح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م، كتاب البر، والصلة والآداب،رقم ٢٥٤٨.

١٤٦) في رواية أخرى عن أبي هريرة. قال. قال رجل : يا رسول الله، من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال : أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك " ص١٩٧٤.

١٤٧) صحيح البخاري، ج٢، ص١٨، رقم ١٨٥٥، كتاب جزاء الصيد.

بالإيجاب. السؤال الموجه للرسول ﷺ مبدوء بالهمزة، والهمزة تحتمل في دلالة السؤال عدة وجوه[١٤٨]، وهي هنا استفهام عن التصور، عندما يكون التردد بين شيئين.

– عن عائشة رضي الله عنها: "قلتُ يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منكِ بابًا" [١٤٩].

جاءت إجابة الرسول ﷺ دقيقة، متفهمة مشاعر الناس، فكلما اقترب الفرد مكانيًّا من آخر، ازدادت رغبته في التعرف عليه، وعلى أخباره، حتى لو كان في نفسه شيء إزاءه؛ والهدية من وسائل تحبيب الناس في الخير، لذا جاء الجواب الموجز حافزًا على الأقرب في المكان، لتسهل دعوة القريب إلى الخير، وينزع من قلبه أي علامات للضعف النفسي.

ب) الرسول حافز على السؤال:

ويعني أن يقدّم الرسول ﷺ عبارة أو كلمات، تكون غامضة نوعا مًا، أو تحتاج إلى مزيد من التوضيح أو إكمال المعنى، مما يرّغب السامع في طرح السؤال.

– عن أبي قتادة ربعي الأنصاري رضي الله عنه، أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فقال: مستريح ومستراح منه. قالوا: يا رسول الله، ما المستريح وما المستراح منه؟ قال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله عز وجلّ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب" [١٥٠].

---

١٤٨) يتطلب السؤال بالهمزة أحد أمرين : التصور أو التصديق، والتصور هو إدراك المفرد، أي إدراك عدم وقوع النسبة في حدود موضوع معين، وتلك النسبة هي موضع الإيجاب أو السلب في الجواب، فهو يكون عند التردد في يقين أحد الشيئين، أما الاستفهام عن التصديق فيكون من نسبة تردد الذهن فيها، بين الثبوت والنفي. راجع : جواهر البلاغة في المعاني والبديع، السيد أحمد الهاشمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٦، دون تاريخ، ص٧٠.

١٤٩) صحيح البخاري، ج٢، ص٢٣٥، رقم ٢٥٩٥، كتاب الهبة.

١٥٠) صحيح البخاري، ج٤، كتاب الرقاق، ص١٩٣.

فالرسول ﷺ يفجِّر قضية من خلال تعليق حول موقف معين، أو حادثة معينة، وهنا تمرُّ جنازة بالنبي ﷺ، فيطلق الرسول ﷺ تعقيبًا على المشهد، والتعقيب جاء غامضًا، وعلى صيغة عمومية، تستدعي أن يتساءل من حول الرسول ﷺ حول: مَن المستريح ومَن المستراح؟ وهنا يجعل الرسول ﷺ من الجنازة -وهو موقف حياتي دائم التكرار- يجعله سبيلاً إلى مفهوم شامل للنفس البشرية، فهي على شقين متقابلين: إمَّا عبد مؤمن، أو فاجر عاص فاسق. والدنيا بما فيها من مخلوقات على شقين وهذان الشقان متقابلان،لكن تقابلا حسب العبد المتوفى، فالمؤمن مستريح من تعب الدنيا وأذى العباد، إذن الدنيا كانت همًّا على النفس المؤمنة التواقة للقاء الله والفوز برحماته، وهي -الدنيا- تضيق بالفاجر الذي يتعامل مع من فيها بإيذاء، وقد حصر الرسول الإيذاء: فإمَّا أن يكون بشريًّا (العباد)، أو مكانيًّا (البلاد)، أو نباتيًّا (الشجر) أو لسائر المخلوقات (الدواب) وهذا ينطبق على الفاجر الفاسد في الأرض، فينال لعنة كلٌ مما سبق حسبما يؤذيه. هذه المقابلة التي نراها في ثنايا مضمون الحديث هي نصح غير مباشر للسامعين بأن يكونوا من الفريق الأول: المستريح من عناء الدنيا. وهذا متسق مع حادثة مرور الجنازة، ومطالعة الناس لها، وسعي الرسول ﷺ إلى أن تكون نظرة الناس على سبيل الموعظة والدرس، وليست مجرد نظرة لا جديد فيها.

– عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده، كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نُزلاً لأهل الجنة. فأتى رجل من اليهود، فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنُزل أهل الجنة؟ قال: بلى. قال: تكون الأرض خبزة واحدة -كما قال النبي ﷺ- . فنظر النبي ﷺ ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالام ونون. قالوا: وما هذا؟ قال: ثور ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفًا" [١٥١].

١٥١) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٥، رقم ٦٥٢٠، كتاب الرقاق.

في الحديث السابق، يتحدث الرسول ﷺ عن بعض مشاهد يوم القيامة، حيث تكون الأرض مثل خبزة واحدة، يتكفؤها الله تعالى أي يميلها كما يشاء، مثلما يميل المرتحل وهو يسوي خبزه، حيث يقلبه بيده، وهكذا يعد المولى تبارك وتعالى مساكن أهل الجنة، وهذا دال على عظمة الخالق، وجبروته وعزته. وهنا نجد تقاطعًا في الحوار، حيث يتداخل (يهودي) في الحوار بطرح سؤال عن نزل أهل الجنة، ولا نعلم أكان يستمع للرسول ﷺ أم جاء في حينه، وأراد أن يخبر بها المسلمين، بدليل أنه كرَّر المقولة نفسها ومن ثم ضحك الرسول ﷺ، فهذا تأييد لكلامه المتقدم، والتأييد جاء من كتابيّ، وهو أيضًا دليل على القواسم المشتركة بين الإسلام واليهودية رغم التحريف الذي أصابها. ونجد أن السؤال من الرسول حول طعام أهل الجنة، وقد ذكر أن هذا الطعام "بالام ونون" والبالام هو الثور في اللغة العبرانية (١٥٢) أما النون فهو الحوت، والشاهد هنا أن هذا طعام أهل الجنة، وهو من خيرة الطعام.

يقول ابن حجر: "فقوله (يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفًا) قال عياض زيادة الكبد وزائدتها هي القطعة المنفردة المتعلقة بها وهي أطيبه ولهذا خص بأكلها السبعون ألفًا ولعلهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب فضلوا بأطيب النزل ويحتمل أن يكون عبـَّـر بالسبعين عن العدد الكثير ولم يرد الحصر فيها... وأن أول طعام يأكله أهل الجنة له زيادة كبد الحوت وغذاؤهم على أثرها أن ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها" وفيه "وشرابهم عليه من عين تسمى سلسبيلا" وأخرج ابن المبارك في "الزهد" بسند حسن عن كعب الأحبار: أن الله تعالى يقول لأهل الجنة إذا دخلوها: إن لكل ضيف جزورا وإني أجزركم اليوم حوتًا وثورًا، فيجزر لأهل الجنة" (١٥٣).

---

١٥٢) جزم بذلك النووي، راجع : فتح الباري شرح صحيح البخاري، باب كيفية الحشر.
١٥٣) " فتح الباري شرح صحيح البخاري "،م س، باب كيفية الحشر.

– عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه. قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، فلم يدخل الجنة" [١٥٤].

فتعبير "رغم أنفه" المكرَّر، يشكِّل غموضًا لدى السامع، وقد كرَّره المصطفى ﷺ متعمدًا، حافزًا لمستمعيه على السؤال، وقد جاءت الإجابة مؤكدة على خدمة الوالدين وطاعتهما وتقديرهما، فمن نال رضاهما، نال الجنة.

– عن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: تُحشرون حفاة عراة غرلا. قالت عائشة: فقلت يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال: الأمر أشد من أن يهمهم ذاك"[١٥٥].

فهيئة الناس يوم القيامة كما ولدتهم أمهاتهم، حفاة دون ما أحذية، عراة دون ثياب، غرلا: وهي جمع أغرل، وهو الذي لم يقطع الخاتن جلدة عورته[١٥٦]، حيث سيرد الله تعالى ما قطع من جسده، ليلقى العبد ربه في الحشر كما خلقه. تتوقف السيدة عائشة متسائلة بحياء الأنثى، بطرح جملة خبرية بصيغة السؤال الاستفهامي، أو على تقدير أداة استفهام محذوفة، وقد جاء رد الرسول ﷺ بأن الأمر يتجاوز المفهوم البشري للعري بين الرجال والنساء، فالناس جميعًا مهمومون بما هو قادم من حشر وحساب وجنة أو نار.

– عن ثوبان، مولى رسول الله ﷺ، عن رسول الله ﷺ، قال: "من عاد مريضًا، لم يزل في خُرْفَة الجنة. قيل: يا رسول الله، وما خرفة الجنة؟ قال: جناها" [١٥٧].

في التأكيد على ثواب عيادة المريض فإنَّ زائر المريض ينال خرفة الجنة، والخرفة: اسم ما يخترف من النخل حتى يدرك[١٥٨]، وهنا نجد أن الرسول ﷺ

---

١٥٤) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٥١.
١٥٥) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٦، رقم ٦٥٢٧، كتاب الرقاق.
١٥٦) المصدر السابق، شرح المحقق في الهامش، ص١٩٥.
١٥٧) صحيح مسلم، كتاب البر، باب فضل عيادة المريض، رقم (٢٥٦٨).
١٥٨) شرح المحقق بالهامش.

استعمل لفظ "خرفة" وهو مأخوذ من واقع البيئة المعيشة، ساعيًا إلى تقريب ثمار الجنة ونعيمها من الأذهان، وساق اللفظة، متوقعًا الاستفهام، وقد حدث بالفعل، ليعلم السامع المزيد عن خرفة الجنة وجناها. ونلحظ دقة استعمال المصطفى في استخدام الفعل "لم يزل"، بصيغة المضارعة، وكأن زائر المريض موصول الأجر في الدنيا والآخرة في آنٍ، ترغيبًا وتحبيبًا في الفعل.

ج) الرسول يجيب بسؤال:

ويعني أن يرد الرسول ﷺ على من يسائله بسؤال آخر، ودفعًا لمزيد من تفكّر السائل، وتمعنه في الجواب.

– عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا نبي الله كيف يُحشر الكافر على وجهه؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟"[١٥٩]

توقف السائل عند كيفية حشر الكفار يوم القيامة على وجوههم، مصداقًا للآية الكريمة: { **الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً**}[١٦٠]. فكيف يقف ويسير المرء على وجهه يوم القيامة؟ إنه سؤال بالمقياس البشري للأمور والأحداث، وقد جاء الهدي النبوي موضِّحًا أن الله تعالى الذي أمشى الكافر على رجليه في الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة، وقد تشكلت الإجابة بشكل السؤال الاستفهامي الذي يستدعي الإجابة بـــ"بلى" [١٦١]، ولكن النص ظلَّ دون جواب لأنه جواب متوقع من كل مؤمن. وسؤال الرسول ﷺ ذاته يستدعي أن يتفكر المؤمن في قدرة الله تعالى التي لا يحدها شيء، وأن يترك التصورات البشرية، فالله تعالى خالق الكون كله، يفعل ما يشاء.

---

١٥٩) صحيح البخاري، ج٤، ص١٩٥، رقم ٦٥٢٣، كتاب الرقاق.

١٦٠) سورة الفرقان، الآية (٣٤)

١٦١) وقد أجاب قتادة الراوي عن أنس بـ"بلى" بعد انتهاء متن الحديث النبوي.

– عن عبد الله بن عمرو (بن العاص)، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال: أحيٌّ والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد[١٦٢].

جاء تساؤل الرسول لسائله عن طبيعة ظروفه العائلية، والرسول أدرى بأفراد المجتمع من حوله، فجاء تساؤله إمعانًا في التعرف على أسرة الرجل قبل أن يأذن له، فلما علم أنهما على قيد الحياة، طلب منه أن يعود لخدمتهما، فهذا بمنزلة الجهاد، وينال المرء ثواب المجاهد إذا خدم والديه.

– عن ابن عباس رضي الله عنهما "أن امرأة من جهينة، جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أُمِّي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: نعم حجي عنها؛ أرأيتِ لو كان على أمك دَينٌ، أكنتِ قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء"[١٦٣].

هنا نرى الإجابة جمعت الرأي الشرعي ثم الدليل العقلي على صحة هذا الرأي، فقد أذَّن الرسول ﷺ للمرأة أن تحج عن أمها، بصيغة واحدة مباشرة، ثم أعطاها إقناعًا عقليًا؛ ماذا لو كان على أمها دين لآخرين؟ ولم يمهل الرسول ﷺ السائلة أن ترد، فالجواب بالإيجاب معروف، ومن ثم استطرد النبي ﷺ، مشدِّدًا على قضاء الفريضة فهي دين الله على عبدته، والله أحق بتسديد الدين من الابنة. وفي الحديث –فقهيًا– وجوب الحج عن الميت سواء أوصى أو لم يوصِ لأنّ الدين يجب قضاؤه مطلقًا[١٦٤].

ويجدر بالذكر أن الرسول ﷺ يعرف شخصيات الكثير ممن حوله من الصحابة والصحابيات، ويدرك بثاقب نظره طبيعة الشخصية، أهي تكتفي بإجابة واحدة مقتضبة أم تحتاج إلى المزيد من التوضيح والدليل.

وقد يكون السؤال بصيغة شرطية في بنائها.

---

١٦٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٤٩ .

١٦٣) صحيح البخاري، ج٢، كتاب جزاء الصيد، ص ١٧، ١٨ رقم ١٨٥٢.

١٦٤) فقه السنة، م س، ج١، ص٤٦٨. والظاهر أن الحج يقدم على دين الآدمي، إذا كانت التركة لاتتسع للحج والدّين، لقوله ﷺ: "فالله أحقُّ بالوفاء"، وقال مالك: إنما يحج عنه إذا أوصى.

– عن أبي بكر رضي الله عنه قال: "قلتُ للنبي ﷺ وأنا في الغار، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال ﷺ ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟!" [١٦٥].

كانت عبارة الصديق رضي الله عنه مجرد هاجس في النفس، أو سؤال فيه حياء، فهو يصاحب الرسول ﷺ في الهجرة، وهما الآن مختبئان في غار ثور، فمشركو مكة يجدّون في طلبهما، ولكن الرسول يعلق على الهاجس بسؤال، يزيد صاحبه الصديق إيمانًا وهُدى، ففي هذا الموقف لا سبيل إلى اللجوء إلى الله تعالى، فكيف لمن كان الله ثالثهما أن يخافا؟! إنه الردُّ المفعم بالتوكل الكامل، واستحضار الذات الإلهية في ساعة المحنة.

– عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم ناسٌ من الأعراب على النبي ﷺ فقالوا: أتقبّلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. فقالوا: ولكنّا والله! ما نقبّلُ. فقال النبي ﷺ: "وأمْلِكُ أن كان الله قد نزع منكم الرحمة؟"[١٦٦].

السؤال الختامي في الحديث: وأمْلِكُ أن كان الله قد نزع منكم الرحمة؟، تقديره: هل يمكن أن أجعل الرحمة في قلوبكم بعد أن نزعها الله منها؟ ذلك أن تقبيل الصبي (يشمل الأطفال والأبناء في مختلف الأعمار)، فالنبي يواجه سلوكًا معتادًا من قبل بعض الجُفاة من الأعراب وهم يتعاملون مع أبنائهم، والتقبيل علامة على الرحمة، فمن انتزعت من قلبه الرحمة بات شديد القسوة، وهذا سلوك غير إسلامي. وقد اكتفى الرسول بإدانة هذا السلوك بجملة خبرية الصياغة، استفهامية الطرح والنبرة، دون جواب، لأنها استنكار وشجب ورفض.

---

١٦٥) صحيح البخاري، ج٣، كتاب مناقب الأنصار، ص٣٧، رقم ٣٦٥٣.

١٦٦) سنن ابن ماجه، الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي، نشر : عيسى البابي الحلبي، القاهرة دون طبعة، دون تاريخ، الجزء الثاني، كتاب الأدب، رقم ٣٦٦٥.

ثانيًا: عندما يَسْأَلُ النبي ﷺ:

وهذا هو الشقُّ الثاني في الحوار الاستفهامي: بأن يكون الرسول سائلاً مستفهمًا، وتشمل تساؤلاته الاستفهام الحقيقي والاستفهام البلاغي بدلالاته المختلفة، وهو ﷺ هنا يمارس دورًا تربويًا يتجاوز به الإطار التقليدي للعالم الأستاذ، إلى دور المُرَّبي والمرشد والداعية، فهي دعوة ورسالة سامية تعنى بتثقيف العقول وتهذيب النفوس وإرشاد السلوك. وقد تقدَّم الشق الأول: بأن يكون الرسول ﷺ مسؤولاً من أصحابه خاصة ومن الناس عامة، فهذا يتسق مع كونه الرسول والمعلم والقائد والـــهادي، وهذا هو الشق الأول من آلية الحوارات في الهدي النبوي.

فمن أمثلة أسئلة الرسول ﷺ:

– عن كعب بن عجرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لعلّك آذاك هوامُّك؟ قال: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: احلق رأسك، وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك بشاة" (١٦٧).

السؤال ناتج عن ملاحظة أثناء الحج، حيث كان يتطاير الهوام وهي الحشرات الطائرة التي تؤذي الرأس، وفي حلق الرأس شفاء وتطهير، وقد رأى الرسول ﷺ الرجل، ومنع الحياء الرجل أن يطلب الرخصة، فترفق الرسول ﷺ بالسؤال، وجاءه الرد بالإيجاب، فطلب منه الرسول ﷺ أن يحلق رأسه – وهذا مخالف للنسك – فهو يعني التحلل قبل الموعد المحدد، ثم يتقرب بذبح شاة أو صيام ستة أيام أو إطعام ستة مساكين. وقد جاء الجواب موجزًا على التخيير حسب ظروف الرجل المالية. والسؤال هنا جملة خبرية، ملقاة بطريقة الاستفهام دلالة على الرقة في الملاحظة.

ويأتي السؤال أشبه باللغز في دعوة للتفكير **والتنشيط الفكري**.

---

١٦٧) صحيح البخاري، ج٢، كتاب المحصر، ص٥، رقم ١٨١٤.

– عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: إن من الشجر شجرة، لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم. فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله بن عمر (راوي الحديث): ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت. ثم قالوا: ما هي يا رسول الله ؟ قال: هي النخلة" (١٦٨).

استهلَّ الرسول حديثه بإعطاء تشبيه عكسي، فبدأ بالمشبه به: الشجرة التي لا يسقط ورقها، وانتهى بالمشبه: المسلم. وقد جاءت الصياغة أشبه باللغز، مازجة بين الدعوة والطرفة، ثم كان السؤال: ما هي؟ ونرى في متن الحديث أحاسيس الراوي "عبد الله بن عمر" فالحياء منعه من التحدث، وكان قد علم الإجابة الصواب كما يظن. فلما عجز الناس عن ذكر اسم هذه الشجرة، سألوا الرسول، فأجابهم بأنها النخلة.

المسلم مثل النخلة، يظل عطاؤه مستمرًا، لا يعرف الكلل، ولا يحده فصل أو زمن، وإنما يكون خيره ممتدًا طيلة الوقت، وهذا نصح غير مباشر ألا ينقطع عطاء المسلم: سلوكًا وصدقاتٍ وعباداتٍ، طيلة عمره.

– قال رسول الله ﷺ: ما تعدون الصرعة فيكم؟ قالوا: الذي لا يصرعه الرجال. قال: لا، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب" (١٦٩).

السؤال هنا يأتي ضمن منظومة تصحيح المفاهيم والتعبيرات التي يتداولها الناس، وهو ﷺ هنا يركِّز على أن الصُّرعة ليست قوة البدن التي يمتاز بها الفرد، ويصرع الرجال، وهذا مفهوم سائد بين الناس، يشابه مفهوم "الفتوة"، إلا أن الرسول يعيد صياغة المقصود به، من دلالة جسدية إلى دلالة معنوية، ليكون القدرة على امتلاك النفس عند الغضب، وهي أشد من مصارعة الرجال فالنفس التي بين أجنابنا عسيرة الانقياد، متقلبة الهوى.

– وفي صلح الحديبية، صلَّى الرسول ﷺ بالناس صلاة الصبح، على أثر سماء كانت من الليلة (أي ممطرة)، وقد تحدث الناس وخاضوا في سبب المطر.

١٦٨) صحيح البخاري، ج١، كتاب العلم، ص٤١، رقم ٦٧.
١٦٩) سنن أبي داود، ج٤، كتاب الأدب، رقم ٤٧٧٩.

فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمَّا من قال: مُطرِنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب؛ وأمَّا من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي ومؤمنٌ بالكوكب"[١٧٠].

جاء السؤال من قبل الرسول ﷺ مرسِّخًا قيمة تعليمية تربوية إيمانية، تتصل بجوهر رسالة التوحيد، إنها قيمة الإيمان بالله تعالى، وأن الله مسبِّب المطر / الرزق، وعلى العبد أن يسبب الأمر كله لله تعالى، فهو خالق الأنواء والكواكب والريح والسحاب. لقد كان اختلاف الناس حول مظاهر الطقس المسببة للمطر، فأراد الرسول ﷺ أن يعطي الجواب الفصل، كيلا يظل النقاش دون ثمرة، وربط الثمرة بالإيمان والكفر.

- ويروي أبو ذر رضي الله عنه إني ساببتُ رجلاً (هو بلال مؤذن الرسول) فعيّرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم، فأعينوهم"[١٧١].

جاء استفهام الرسول ﷺ: "أعيرته بأمه؟" استنكاريًا، فالحادثة وقعت، وهناك من شهد عليها، ولا مجال لغير ذلك، ووقعت بين صحابيين جليلين هما أبو ذر الغفاري وبلال بن رباحة، وقد واصل الرسول ﷺ حديثه، مطورًا الأمر من مجرد خطأ لفظي، إلى قاعدة عامة في التعامل مع الخدم والأتباع، علمًا أن بلالاً لم يكن خادمًا ولا عبدًا عند أبي ذر، ولكن هذا سلوك يشيع لدى بعض الناس، في سوء تعاملهم مع خدمهم وأتباعهم، فهم بشر، لهم رغبات في المطعم والمشرب والملبس والإعانة.

ويأتي الاستفهام للوقوف على الأمر **بشكل تفصيلي**.

---

١٧٠) صحيح البخاري، ج١، كتاب الآذان، ص٢٧٢، رقم ٨٤٦.
١٧١) صحيح البخاري، ج١، كتاب الإيمان، ص٢٦، رقم ٣٠.

– عن النعمان بن بشير ﷺ، قال: أعطاني أبي عطيةً، فقالت عمرة بنت رواحة (أم النعمان): لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ. فأتى رسول الله ﷺ، قال: إني أعطيتُ ابني من عمرة بنت رواحة عطيةً، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، فقال: أعطيتَ سائر ولدك مثل هذا؟ قال: لا. قال: فاتقوا الله، واعدلوا بين أولادكم. قال: فرجع فردَّ عطيته" [١٧٢].

السؤال جاء للتأكد من التوزيع العادل للعطاء، فهل شمل الأب كل أولاده بعطايا مثل صغيره النعمان، فكان السؤال طلبًا للتوضيح والفهم، ومن ثم يكون الحكم من قبل الرسول ﷺ، فهو سؤال على حقيقي الاستفهام والدلالة، للتأكد من المعلومة قبل نطق الحكم. وجاء الحكم مرسِّخًا قيمة العدالة بين الأولاد، ولم يكن رد الرسول ﷺ خاصًا بوالد النعمان، بل جاء عامًا لكل المسلمين.

– عن جابر بن عبد الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب – أو أم المسيب –، فقال: مالك؟ يا أم السائب أو أم المسيب، تزفزفين؟ قالت: الحُمى، لا بارك الله فيها. فقال: لا تسبي الحمى، فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد" [١٧٣].

جاء استفهام الرسول ﷺ عن حالة الصحابية الجليلة، وهي تعاني الحُمى، وقد رآها تزفزف (أي ترتعد بشدة)، والسؤال استفهام حقيقي للتعرف على سبب الارتعاد، فلما عرف أن الحمى هي السبب، مصحوبة بلعنة الحمى، حوّل المصطفى ﷺ القضية من كون الحمى سببًا للمعاناة الجسدية والألم، وهي دلالة سلبية للمرض كله، إلا أنها أصبحت ذات دلالة إيجابية للمؤمن، لأنها صارت وسيلة لتكفير الذنب، واستخدم الرسول ﷺ التشبيه الحركي "كما يذهب الكير خبث الحديد"، في إشارة إلى أن اشتداد سخونة الجسد يعني تكفير الذنب، وسخونة نار الحديد تشابه سخونة الجسد، مثلما تشابه خبث الحديد مع الذنوب. فقد جاء السؤال استفهامًا حقيقيًا، أتبعه بأمر مؤكد في الأحاديث النبوية، بأن أمر المسلم كله خير،

١٧٢) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الهبة، ص٢٣٣، رقم ٢٥٨٧.
١٧٣) صحيح مسلم، كتاب البر، فصل عيادة المريض، رقم (٤٥٧٥) .

إن أصابه خير شكر فكان خيرًا له، وإن أصابه شرٌّ صبر فكان خيرًا له، وكل ما يصيب المسلم من نصب أو مرض أو هم أو حزن، هو تكفير لذنوبه وخطاياه.

ومن ناحية أخرى، فإن الرسول ﷺ يقدم هنا نموذجا للداعية الملتحم مع من يدعوهم، إنه يحرص على "إظهار الشفقة والرحمة بمن يقوم بتربيتهم ودعوتهم" فالالتزام بالرفق والشفقة والرغبة في راحة من ندعوهم والتعامل معهم برفق وأدب، يساهم في جذب قلوبهم وإدامة الحمة بين لبنات المجتمع المسلم [١٧٤].

– عن أبي هريرة أن رسول ﷺ قال: أتدرون من المُفْلِس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: المُفْلِس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طُرِح في النار" [١٧٥].

جاء سؤال الرسول ﷺ حول لفظ "المُفْلِس" الشائع، وهو سهل، استدعى الإجابة سريعًا، من قبل السامعين، لأنه دال على مفهوم الإنسان الذي لا يملك شيئًا من متاع الدنيا، ولكن الرسول يعيد تصحيح المفـــهوم، فليس المفلس من وجهة نظر الإسلام هو من كان خالي الوفاض دنيويًا، وإنما من تطاول وظلم وضرب وآذى الناس، رغم أن لديه رصيدًا من الحسنات من طاعاته وعباداته، ولكنه رصيد يتبدد سريعًا يوم القيامة، بفعل سوء سلوكه مع الناس، فيأخذ كل ذي مظلمة حقه من حسنات الرجل، فأصبح مُفلِسا وتتراكم عليه سيئات من بقي دون أن يأخذ حسنات فيُطرَح المفلس في النار.

هذا الحديث يأتي ضمن منظومة الهدي النبوي، المعتمدة على تصحيح المفاهيم الدنيوية التي يعاني الناس منها، لتكون القضية الحياتية لهم هي الآخرة، والفوز برضا الله والجنة.

---

١٧٤) المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء عليهم السلام، الجزء الأول، اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق الشريعة الإسلامية، الديوان الأميري بالكويت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ص٢٠٧، ٢٠٨م.

١٧٥) صحيح مسلم،كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٨١، ص١٩٩٧.

لقد جاءت أسئلة الرسول ﷺ لمن حوله، تستهدف أمورًا عدة: التعرف على حقيقة الأمر، ترغيب السامع في المعرفة، اطلاع السامعين على الجديد في الدين.

إن السؤال من أبرز القيم التربوية التي تحفِّز العقل على التفكير، والرسول لا يلجأ لأسلوب تقديم المعلومة بشكل مباشر، بقدر ما يجعل المتلقي/ السامع له يفكِّر، ويفكِّر، ويقدِّم له المعلومة بطريقة مبسطة ذات بلاغة عالية، وكلمات موحية، والسؤال أعلى الطرق للنقاش وإثارة الذهن.

المبحث الثالث

الحدث والتعليق

من أبرز الوسائل التربوية التي لجأ إليها الرسول ﷺ التعليق على الأحداث، وهو تعليق تعددت أنماطه، بتعدد المواقف والأحداث التي مرَّتْ أمام الرسول ﷺ، فلم يكن المصطفى يدع حدثًا يمكن أن يعطي معلومة دينية أو قيمة خلقية أو سلوكًا طيبًا أو إرشاد، إلا واستثمره في الدعوة إلى الخير.

ويختلف هذا المبحث مع المبحث السابق، في كونه يتخذ من الحادثة أو الموقف الدنيوي العارض سببًا في التوجيه النبوي، أما المبحث السابق، فإن الرسول ﷺ يتخذ السؤال أساسًا في تكوين حديثه سواء كان في تساؤل من حوله أو هو طارحٌ السؤال عليهم. نرى ذلك واضحًا في كتب الأحاديث الشريفة، حيث قلَّتْ الخُطب المطولة وكثرت الأحاديث قليلة الكلمات، وهذا ما يجعلنا نقف متأملين أمام تسمية "حديث" التي أُطلقتْ على النصوص الموثقة إلى الرسول ﷺ، وهو مصطلح غاية في الدقة، لأنه مشتق من طبيعة تشكيل النصوص، ذلك لأن الرسول ﷺ أنتج هذه النصوص من موقف المشافهة مع الآخرين، فهي كلام تحدث به، في حوار أو مساءلة أو حادث أو تعليق وغير ذلك. إذًا مصطلح حديث هو مصطلح عام، تندرج تحته كافة الأشكال والقوالب التي نراها في النصوص النبوية الشريفة، فهذا المصطلح شكل أدبي، مثلما هو مصدر للفقه والشريعة واللغة.

وهنا – في هذا المبحث – تكون الحادثة العارضة والموقف اليومي سببًا في تكوين الحديث الشريف.

أ) مراجعة النبي ﷺ :

ويتناول مراجعة من حوله ﷺ لموقف أو قول للرسول وهي مراجعة تشمل التحفظ أو الاعتراض على مقولة أو تصرف للرسول ﷺ.

– عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ رجلان. فكلماه بشيء لا أدري ما هو، فأغضباه، فلعنهما وسبهما، فلما خرجا، قلت: يا رسول الله، من أصاب من الخير شيئًا ما أصابه هذان. قال: وما ذاك؟ قالت: قلتُ: لعنتهما وسببتهما. قال: أو ما علمتِ ما شارطتُ عليه ربي؟ قلتُ: اللهمّ، إنما أنا بشر. فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاةً وأجرًا" (١٧٦).

جاء هذا الحديث في باب "من لعنه النبي أو سبَّه أو دعا عليه وليس هو أهلاً لذلك كان له زكاة ورحمة"، فقد استغربت السيدة عائشة رضي الله عنها من غضب الرسول ولعنه لهذين الرجلين، فلما راجعت النبي ﷺ بانَ تواضعه الجم، وحُسن خُلقه، وخشيته أن يكون قد ظلم شخصًا ما، فجعل ما يصدر عنه زكاة وأجرًا للآخرين، مُقرًّا أنه بشر، مُعرَّض للخطأ، وهذا تأكيد على البُعد البشري في شخصية النبي ﷺ، وهو بُعدٌ أتاح للناس والصحابة من حول الرسول أن يراجعوه ويناقشوه، وهو يستمع.

وقد وردت أحاديث عدة في ذلك، منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه، يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: اللهم، إنما أنا بشر، يغضب كما يغضب البشر. وإني قد اتخذت عهدًا لن تخلفنيه، فأيما مؤمن آذيته ــ أو سببته، أو جلدته، فاجعلها له كفارة، وقربة، تقربه بها إليك يوم القيامة" (١٧٧).

– عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فقال: ائذنوا له، فلبئس ابن العشيرة، أو بئس رجل العشيرة. فلما دخل عليه ألان له القول. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، قلتَ الذي قلت، ثم ألنتَ له القول؟! قال: يا عائشة إنَّ شرَّ الناس منزلةً يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس اتقاء فحشه"(١٧٨).

---

١٧٦) صحيح مسلم،كتاب البر والصلة، رقم ٢٦٠٠.
١٧٧) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة ، رقم ٢٦٠١.
١٧٨) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة ، رقم ٢٥٩١.

جاء تساؤل السيدة عائشة ﵂ في محله، فقد رأت موقفًا متناقضًا في ظاهره من قبل المصطفى ﷺ، يذم رجلاً ثم يتهلل في استقباله، فجاءت إجابة الرسول حكيمة، إنه يدين الرجل الذي يخشاه الناس ويتحاشونه خوفا من فساد خلقه، وفحشه الشديد. فقد ذمه الرسول ﷺ بعبارة عامة "فلبئس ابن العشيرة"، ثم أوضح كيف يكون سلوك الفاسد البذيء؛ مدعاة لهجر الناس له.

ب) التعليق على شكوى:

وتتصل بكثير من الشكاوى الحياتية، المتعلقة بسلوكيات الناس مع بعضهم.

– عن أبي هريرة ﵁، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة، أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ. فقال ﷺ: لئن كنتَ كما قلتَ، فكأنما تسفّهمُ الملّ. ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك" (١٧٩).

إنها شكوى مؤلمة بشكل كبير، لرجل في قلبه الخير والحب والعطاء لقرابته، ويقابلونه بالإساءة والتنكر والقطيعة. وقد جاءت إجابة الرسول ﷺ موضحة ثواب فاعل ذلك، وعقوبة من يسيئون إليه، فالعقوبة أنهم يسفون الملَ، أي يتناولون رغمًا عنهم الرماد الحار، كأنهم يطعمونه في جهنم، أما هو فينال معونة الله له، وأن يكون الله هو مدافعه لأذاهم، وهذا يتوقف على تحمله لما يفعلون، واستمراره في هذا الخير.

نلاحظ أن رد الرسول ﷺ فيه حثٌّ على عدم القطيعة، والتواصل، وتحمل الأذى، ولو كانت المعاملة بالمثل لكانت القطيعة بين الناس عظيمة.

– عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ وَرَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا غَلَبَنِي عَلَى أَرْضٍ لِي . فَقَالَ الْكِنْدِيُّ: هِيَ أَرْضِي وَفِي يَدِي لَيْسَ لَهُ فِيهَا حَقٌّ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ

١٧٩) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، رقم ٢٥٥٧.

لِلْحَضْرَمِيِّ: "أَلَكَ بَيِّنَةٌ". قَالَ لاَ. قَالَ "فَلَكَ يَمِينُهُ". قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ فَاجِرٌ لاَ يُبَالِي عَلَى مَا حَلَفَ عَلَيْهِ وَلَيْسَ يَتَوَرَّعُ مِنْ شَيْءٍ. قَالَ "لَيْسَ لَكَ مِنْهُ إِلاَّ ذَلِكَ". قَالَ فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ لِيَحْلِفَ لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَدْبَرَ "لَئِنْ حَلَفَ عَلَى مَالِكَ لِيَأْكُلَهُ ظُلْمًا لَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ" [١٨٠].

الشكوى هنا واضحة: نزاع بين رجلين على قطعة أرض، الرجل المدعي (الحضرمي) يقول إنها أرضه، وأن الرجل الثاني (الكندي) يضع يده عليها دون حق. فردَّ الكندي (المدعى عليه): إنها أرضه وهو يضع يده عليها. فلما سأله الرسول ﷺ عن دليل يثبت ملكيته، قال: لا يمتلك. فطلب منه الرسول أن يحلف[١٨١]. فردَّ المدعي: أن الفاجر لا يهتم أن يحلف كذبًا أو صدقًا. فيرد الرسول أنه لا يملك عليه إلا ذلك.

الدرس المستفاد من هذه الشكوى: أن التقاضي يكون بين الناس سلميًا، ولابد من القبول بحكم القاضي، وهنا كان القاضي الرسول ﷺ، وقد أراد أن يثبت أن المسألة ليست قضية صراع على الدنيا، وعلى قطعة أرض، فهذا عند الله، ويوم القيامة لا قيمة له، فإن الله يعرض عنه، كناية عن غضب الله عليه، وسخطه على من يأكل أموال الناس بالباطل والحلف الكاذب. فقد أعاد الرسول ﷺ القضية إلى لُبِّها: أن يكون رضا الله هو الهدف، وعلى كل امرئ أن يراجع نفسه في أي مال غلول.

وفي نفس هذه الحالة، يروي الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل خصومة في بئر، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال: شاهداك أو يمينه. فقال: إنه يحلف ولا يبالي، فقال: من حلف على يمين يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان" [١٨٢]. لقد كانت شكوى الأشعث: الحلف دون مبالاة، اليمين الكاذب، مثل الرجل الذي ينفق سلعته بأيمان كاذبة. إنها قضية عامة، تتجاوز

١٨٠) سنن الترمذي، كتاب الأحكام، رقم ١٣٩٠، حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .
١٨١) إذا عجز المدعي بحق على أخر عن تقديم البينة وأنكر المدعى عليه هذا الحق، فليس له إلا يمين المدعى عليه، وهذا خاص بالأموال والعروض. فقه السنة، م س، ج٣، ص٢٤٣.
١٨٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، راجع فقه السنة، ص٢٤٣.

النزاع حول أرض أو بئر، إلى نفوس لا تقيم قداسة ولا إيمانا لمن يحلفون به، وهو المولى تبارك وتعالى.

كلا الحديثين يشيران إلى طبيعة المجتمع المسلم أيام الرسولﷺ فقد وجدت أشكال مختلفة من النزاعات بين البشر: حول أرض وبئر ومال وأيمان كاذبة وغير ذلك، ولكن هناك تطور كبير في نفوس المسلمين، إنها تقبل التقاضي السلمي وفقًا لما جاءت به أحكام الشريعة الإسلامية، والرسول ينفذ هذه الأحكام، ملتزمًا بنصوصها، دون أن يغوص في أعماق النفوس: أكاذبة هي أم صادقة؟ لقد تحوّل المسلمون من مجتمع قبائلي يحتكمون فيه إلى السيف والعصبية القبلية، إلى التحاور والاحتكام إلى القاضي.

ج) التعليق على تصرف سلوكي:

فكثيرة هي المواقف التي تصادف الناس في تصرفاتهم اليومية، وتحتاج إلى هدي وإرشاد من قبل الرسول ﷺ، وهو هدي عملي مباشر، في محله.

– ركبت عائشة رضي الله عنها بعيرًا، فكانت فيه صعوبة، فجعلت تردد. فقال لها رسول الله ﷺ: عليكِ بالرفق" [١٨٣].

هذا الحديث جُزءًا مُضافًا من حديث الرسول ﷺ المروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها: " إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه" [١٨٤]. والرسول هنا يربط هذا المفهوم بكل جوانب الحياة، ليشمل الإنسان والحيوان وكل المخلوقات والتصرفات، فقد قست السيدة عائشة بعض الشيء على البعير، لأنه فيه صعوبة، ذكرها الرسول بالرفق، ليكون قاعدة عامة شاملة كل المخلوقات والتصرفات.

١٨٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة ، رقم ٢٥٩٤.
١٨٤) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة ، رقم ٢٥٩٤.

– عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما غضبًا شديدًا حتى خُيّل إليّ أن أنفه يتمزّع من شدة غضبه، فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب، فقال: ما هي يا رسول الله؟ قال: يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم. قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى ومحك، وجعل يزداد غضبًا" (١٨٥).

الغضب ثورة بالغة القوة، ومفسدة للنفس، والرجل في الحديث السابق، يتمزّع أي يتجاوز في غضبه ويشتد، والرسول ﷺ نصح مَنْ حوله، لأن الغاضب في حالة عدم تلق وتوجيه، وكانت النصيحة بسيطة وهي ترديد الدعاء: "اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم"، إلا أن الرجل يأبى، ولكن الموقف يسجل نصيحة لكل المسلمين وقت غضبهم.

– عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟ (١٨٦). وهذا دال على رقة الرسول ﷺ وتوجيهاته، فلا يتعمد التوجيه المباشر المحرج للفرد، وإنما يجعل الأمر قضية عامة، دون تخصيص، فيتقبل النصح فيها كل مسلم، وتتناقلها الألسنة.

د) الرسول يفعل الحدث ويعلق عليه:

وهذا يكون الحادث من فعل الرسول ﷺ، ومن ثم يكون تعليقه عليه إرشادًا وهديًا، ويبدو هذا في مواقف الدعابة أو في الوقوف عند بعض الجمادات والأمتعة.

– يذكر أن "رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهرًا، وكان يُهدي إلى النبي ﷺ هدية من البادية، فيجهّزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي ﷺ: "إن زاهرًا باديتنا، ونحن حاضروه" (أي هو المقيم في البادية، ونحن حاضرو المدينة

١٨٥) سنن أبي داود، ج٤، كتاب الأدب، رقم ٤٧٨٠.
١٨٦) سنن أبي داود، ج٤، كتاب الأدب، رقم ٤٧٨٨.

له) "وكان ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميمًا، فأتاه النبي يومًا، وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، وهو لا يبصره، فقال: من هذا؟ أرسلني. فالتفت، فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي، حين عرفه، فجعل النبي ﷺ يقول: من يشتري هذا العبد؟ فقال: يا رسول الله ! إذًا والله تجدني كاسدًا. فقال النبي ﷺ: ولكن عند الله لست بكاسد. أو قال: أنت عند الله غالٍ" (١٨٧).

إننا أمام موقف رائع، موقف يعبِّر عن علاقة عميقة، بين زاهر البدوي، والرسول ﷺ، ولننظر إلى هذه العلاقة الممتدة، زاهر يهدي للنبي، والنبي يجهزه عند سفره إلى البادية، فزاهر بادية للمسلمين والمسلمون حاضرون له، في إشارة إلى نبذ التنابز والتفرق بين أهل البادية وأهل الحضر. ومن شدة حب الرسول لزاهر، نرى موقفًا جميلاً، الرسول يحتضن زاهرًا وهو أسمر الوجه، ويبيعه – ضحكًا – للناس، وزاهر يبادله الدعابة، ويقول لن تجد من يشتريني يا رسول الله، إلا أن الرسول الذي لا يقول إلا حقًا، ولا يداعب إلا بحث، يعيده إلى لُبِّ القضية، قضية التقوى، التي هي معيار القبول عند الله، فيقول: "أنت عند الله غالٍ".

– عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ، قَالَ كُنْتُ مَعَ الرَّكْبِ الَّذِينَ وَقَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّخْلَةِ الْمَيِّتَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَانَتْ عَلَى أَهْلِهَا حِينَ أَلْقَوْهَا". قَالُوا مِنْ هَوَانِهَا أَلْقَوْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ "فَالدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا"(١٨٨) . لقد أوقف الرسول ﷺ أصحابه عند سخلة ميتة (والسخلة ولد الشاة) ما كان (١٨٩)، ويطرح سؤالاً معلوم جوابه مسبقًا: أهذه الشاة هانت على أصحابها حينما ألقوها؟ وبالطبع، كانت الإجابة متوقعة، لأن أصحاب الشاة ألقوها، إيقانًا أن لا فائدة منها وهي ميتة. ومن ثم يقلب الرسول الموقف إلى معنى سام؛ هكذا الدنيا، هينة على الله تعالى، وهو الخالق العظيم.

---

(١٨٧) مختصر الشمائل المحمدية، للإمام أبي عيسى محمد بن سورة الترمذي، اختصره وحققه : محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط٤، ١٤١٣هـ ص ١٢٧، ١٢٨. ذكر أنه حديث صحيح.

١٨٨) سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي ، نشر موقع www.al-eman.com (نداء الإيمان)، مكتبة التراث الإسلامي.
كتاب الزهد، رقم ٢٤٩١ (حَدِيثٌ حَسَنٌ).

١٨٩) القاموس المحبط، الفيروزأبادي، مادة سخل، ص١٣١٠.

وهكذا يستثمر الرسول ﷺ مختلف المواقف والمظاهر في الحياة، حتى النفايات، من أجل تعزيز الآخرة في النفوس، موضحا أن الأمر كله لا يحتاج إلى تصارع وتكالب، مادامت الدنيا لا تساوي عند الله هذه الشاة الميتة.

هـ) التعليق بقول موجز وفعل سلوكي:

فهناك أحداث تحتاج إلى الفعل أولاً، ثم يكون القول، وهذا يقدر بقدره حسب الفعل، وموقف الناس من الفاعل، وقد يكون القول توجيهًا لسلوك أو قولاً عامًّا.

– عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أعرابيًا بال في المسجد، فقاموا إليه، فقال رسول الله ﷺ: "لا تزرموه، ثم دعا بدلو من ماء فصبّ عليه" (١٩٠). فالأعرابي يتصرف دون وعي للخطأ الجسيم الذي فعله، ويبدو أنه حديث عهد بالإسلام، إنه يتبول في المسجد أمام الناس، فعل مشين، نجاسة في أطهر البقاع، فيهمُّ الصحابة رضوان الله عليهم بالرجل، ولكن الرسول يوقفهم، ويطلب منهم عدم إزعاجه (إيقافه)، ثم الأمر الفوري أن يضعوا الماء على البولة للتنظيف والرجل سيفهم سوء ما فعل، وسيصلح من سلوكياته بلا شك، ما دام التوجيه هادئًا، وبحلمٍ وأناةٍ كبيرين.

– "كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول: لم تُراعوا، لم تراعوا. وهو على فرس لأبي طلحة عريٍ ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: لقد وجدته بحرًا (أي وجد الفرس جوادًا سهلاً كالبحر) أو إنه لبحر" (١٩١).

فإذا فزع الناس لصوت، فإن الرسول كان أسبقهم في الخروج، إنه يخاف عليهم، فهو جزء منه، يسبق الناس إلى مصدر الصوت، ويعود ليخبرهم بهدوء ويطمئنهم، باسمًا، فالمسألة سهلة، إنه جواد راكض كالبحر عالي الصوت.

---

(١٩٠) صحيح البخاري، ج٤، كتاب الأدب، ص٩٦.

(١٩١) صحيح البخاري، ج٤، كتاب الأدب، ص٩٧.

– قال أبو هريرة ﷺ، كان النبي ﷺ يجلس معنا في المجلس يحدثنا، فإذا قام قمنا قيامًا، حتى نراه قد دخل بعض بيوت أزواجه، فحدثنا يومًا فقمنا حين قام، فنظرنا إلى أعرابي قد أدركه، فجبذه بردائه فحمر رقبته. قال أبو هريرة: وكان رداءه خشنًا. فالتفتَ. فقال له الأعرابي: احمل لي على بعيريّ هذين فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك. فقال النبي ﷺ: لا، وأستغفر الله، لا، وأستغفر الله، لا، وأستغفر الله لا أحمل حتى تَقيدَني من جبذتك التي جبذتني". فكل ذلك يقول له الأعرابي: والله لا أقيدكها. قال (أبو هريرة): ثم دعا رجلاً فقال له: احمل له على بعيريه هذين، على بعير شعيرًا، وعلى الآخر تمرًا. ثم التفتَ إلينا فقال: انصرفوا على بركة الله" [١٩٢].

إننا أمام موقف غاية في الرقي الإنساني، الرسول ﷺ خاتم النبيين، وسيد العالمين، في موقف قاسٍ مع أعرابي، تبدو عليه الغلظة في التعامل، لا يعرف مقدار الرسول، ولا سبل التعامل اللطيف، لقد جاء مطالبًا ببعض الأعطيات من بيت مال المسلمين، والرسول قائم عليه، وكان الطلب بعنف فقد جذب الأعرابي المصطفى ﷺ بشدة، وحين طالبه الرسول أن يعتذر مما فعل يأبى الأعرابي. الغريب أن الرسول يتنازل، ويطلب من أحد صحابته الكرام أن يحمل للرجل شعيرًا وتمرًا، في إشارة إلى تجاوزه عما فعل الأعرابي، فالرسول هنا نموذج واضح للحلم والأناة وحسن التصرف. والحلم كما يقول الإمام أبو حامد الغزالي: "أفضل من كظم الغيظ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم، أي: تكلّف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ، إلا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك صار ذلك اعتيادا فلا يهيجه الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهذا هو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل، واستيلائه، وانكسار قوة الغضب، وخضوعها للعقل، ويكون ابتداؤه التحلّم وكظم الغيظ تكلفا، ويعتاد ذلك..." [١٩٣]. فالإمام الغزالي هنا، يتحدث عن صفة الحلم عامة، وكيفية غرسها

١٩٢) سنن أبي داود، ج٤، كتاب الأدب، رقم ٤٧٧٥.
١٩٣) إحياء علوم الدين، م س، ج٣، ص١٧٦.

في النفس، وهذه الصفة تكتسب بالمران والتربية، أما رسولنا ﷺ فقد كان النموذج في الحلم: صفةً وطبعًا وخلقًا، وتصرفه الذي رأيناه هنا دليل على ذلك.

على هامش هذا الحديث - أيضًا - نجد أمورًا: أولها: بساطة ما يرتديه الرسول فقد كان رداءً خشنًا، ولو شاء لارتدى اللين والفخم من الثياب.

ثانيها: أن الرسول أدرك أن الأعرابي حديث عهد بالإسلام، لا يعرف مكانة الرسول الهادي، ولكنه يدرك أن من حقوقه أن يأخذ من بيت المال، وقد تنازل الرسول له عن حقه الخاص في الجبذة الشديدة، وأعطى الأعرابي ما أراد.

ثالثها: أن الصحابة كانوا بمقدورهم أن يدفعوا الأعرابي، ولكنهم لم يتحركوا لفعل شيء في انتظار تصرف الرسول مع الرجل، وهو تصرف دال على مسامحة، وحرص على امتلاك قلب الأعرابي للإسلام، وتأليف قلبه بالعطاء.

رابعها: أن الرسول اكتفى بالفعل على القول، فلم يعنف الأعرابي، ولم يتحدث عن جدوى ما فعل مع الصحابة، وإنما أمرهم أن يعطوا الرجل، وأن ينصرفوا، فالفائدة هنا سلوكية: تسامح وتنازل عن حق النفس تحبيبا للقلوب في هذا الدين. وتطبيقا لقول الله تعالى: { **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** }[١٩٤]. وهنا تتبلور القوة النفسية للمحاور بتفعيل مفهوم "الدفع" القرآني، بالتعامل الحسن مع الظالم ويكون العفو والعطاء وسماحة النفس هي السمات النفسية في أعماق من يلجأ إلى قانون الدفع"[١٩٥]، وهذا ما قام به الرسول ﷺ مع الرجل البدوي.

- قال أنس (خادم الرسول): كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب - وفي نفسي لا أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ. قال (أنس): فخرجت، حتى أمرّ على صبيان وهم يلعبون في السوق. فإذا رسول الله ﷺ قابض على قفاي من ورائي، فنظرت إليه، وهو يضحك، فقال: يا أنيس، اذهب حيث أمرتك. قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله.

١٩٤) سورة فصلت، الآية (٣٤).
١٩٥) انظر : قيادة الذات وإدارتها، نسيبة عبد العزيز المطوع، سلسلة رؤية تربوية، على نفقة المؤلفة، الكويت، ط٢، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ص٩٤.

قال أنس: والله لقد خدمته سبع سنين، أو تسع سنين ما علمت قال لشيء صنعت: لم فعلت كذا وكذا، ولا لشيء تركت: هلا فعلت كذا وكذا [١٩٦].

هنا نرى رواية الحديث على لسان أنس خادم الرسول ﷺ ونرى كيف كان يتعامل الرسول بلطف ورقة مع خادمه، فهو يقدر روح اللعب في الخادم، ويوجهه برفق، ويضحك له. ولننظر إلى مناداة الرسول للخادم، لقد استخدم صيغة "أنيس" وهي تصغير أنس، والتصغير هنا دلالة على المحبة والقرب [١٩٧]، واستعمال الألفاظ المحببة إلى النفس في التربية والدعوة إلى الله، يستثير عواطف من ندعوهم، ويشعرهم بالقرب من النفس، فيصل كلام الداعية إلى القلب مباشرة [١٩٨].

ومن خلال الحوار اللطيف والعبارات البسيطة، يوجه الرسول غلامه، ويشهد الغلام أنس رضي الله عنه بحُسن معاملة الرسول ﷺ فترة خدمة أنس له: سبع أو تسع سنين.

---

١٩٦) سنن أبي داود، ج٤، كتاب الأدب، رقم ٤٧٧٣.

١٩٧) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، عبد الله بن عقيل، دار التراث، القاهرة، ط٢٠، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، المجلد الثاني، ج٤، ص١٣٩، ١٤٠.

١٩٨) انظر : المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء عليهم السلام، ج١، م س، ص٢٠٣.

المبحث الرابع

القصة نموذجًا للحوار

يتناول هذا المبحث أحد أشكال التعبير في الأحاديث النبوية الشريفة، وهي شكل القصة، والقصة في مفهومها البسيط فنٌّ يعتمد على الحكاية، وفي الحكاية أحداث وشخوص ومكان وزمان، حيث ينبع مصطلح "القص" -معجميًا- من تتبع الأثر، ثم تطور إلى معنى الحكاية، ويكاد الخبر والقصة يتفقان في الدلالة على الحكي[١٩٩]، وبالنظر إلى استعمالات القصة المختلفة نجد أنها لا تخرج عن ذلك المدلول، وإن أصبحت مصطلحًا عامًا، ينتظم الفن القصصي بأسره على اختلاف أشكاله[٢٠٠]. فعندما نذكر "القص" أو "القصص" لا نقصد فن القصة القصيرة أو القصة الطويلة أو الرواية، بل المقصود دلالة القص عامة. وقبل ذلك دلالة وأغراض يريدها منشئ القصة ومقدمها.

أجاد الرسول ﷺ في توظيف القصة في أحاديثه الشريفة توظيفًا يخدم القيم السامية التي يرومها، خاصة أن النفس البشرية تميل إلى سماع القصص، وتحتفي بالحكايات، ويسهل إيصال المعلومة والحكمة عبر القصة، بدلاً من القول المباشر.

ولسنا بصدد عرض أبرز القصص التي وردت في كتب الصحاح، بقدر ما يهمنا أن نتعرف على القصص بوصفها شكلاً من أشكال الحوار الذي استخدمه الرسول ﷺ، وهو شكل موظف في ثنايا الحوار، لذا فإن تناول القصة في هذا المبحث سيكون خاضعًا لآلية الحوار، بمعنى أن القصة ستكون واردة ضمن سياق الحوار النبوي، فهي خاضعة لمنطق الحوار الذي تكون القصة فيه مثالاً أو دليلاً أو تعليلاً أو وسيلة لتوصيل مفهوم أو معلومة.

---

(١٩٩) لسان العرب، ابن منظور، ج٥، ص١٠٢. يشير إلى أن القص يعني تتبع الأثر، والقص والخبر مترادفان، والقصص هي الخبر المقصوص (المحكي)، و القاص هو الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها.وانظر أيضًا : المعجم الوسيط، ج١، ص٢٢٢.

(٢٠٠) انظر : فن القصة القصيرة ، د. عبد الحميد يونس، دار المعرفة، القاهرة، ص١٢

وعليه يمكن أن نقسم أشكال القصص في الحوار النبوي إلى عدة أشكال:

١) المثل القصصي:

حيث تكون القصة مثالاً يبسط المفهوم والمراد، وهذا المثال مجرد قصة بأحداث مفترضة، لذا هي تقترب من شكل المثال العام، أو القص المتخيل، الذي يلامس حياة المتلقي بشكل عام، ويبدأ متن الحديث بطرح مفهوم وتأتي القصة توضيحًا لهذا المفهوما وتبسيطًا له.

– عن أبي موسى ﵁ عن النبي ﷺ: قال: (مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قومًا، يعملون له عملاً يومًا إلى الليل، على أجر معلوم، فعملوا له إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا، واستأجر أجيرين بعدهم، فقال لهما: أكملا بقية يومكما هذا، ولكما الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا، حتى إذا كان حين صلاة العصر قالا: لك ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال لهما: أكملا بقية عملكما، ما بقي من النهار شيء يسير، فأبيا، واستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور)[٢٠١].

فقد جاء استهلال الحديث بمقارنة بين: المسلمين واليهود والنصارى، وجاء الاستهلال غير مكتمل، فلم نعرف مثل أصحاب الديانات الثلاث بماذا، فقد ارتبط هذا المثل بالقصة المروية، وجاءت القصة – نحويًا – خبرًا للمبتدأ (مثل)، وهذا يعني التعاضد اللغوي والبنائي بين جوانب الحديث الشريف، ونعلم أن المضمون الكُلي للقصة هو المقارنة بين جهود أصحاب الديانات الثلاث في الوفاء بخدمة الإسلام والذود عنه، ونيل ثواب إتمام دعوته وإكمال أركانه. فالفريق الأول عمل منتصف النهار، ولم يستطع أن يكمل العمل، فغادر متنازلاً عن الأجر، والفريق

٢٠١) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الإجارة، ص١٣٣، رقم ٢٢٧١.

الثاني عمل إلى العصر، وغادر رغم أن المتبقي على آخر اليوم شيء يسير، ولكنهم غادروا متنازلين عن الأجر، أما الفريق الثالث فقد أتمَّ العمل حسب الوقت ونال الأجر.

في الحديث أمور عدة: أن الرسول ﷺ: جعل الديانات السماوية الأساسية الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلام في بوتقة واحدة، وهذا دليل على اعتراف الإسلام بالنبوات والرسالات السابقة، وأنها وغيرها من دعوات أنبياء الله تخرج من مشكاة واحدة، بغض النظر عن التبدل والتحريف في بعضها، وهنا جعل الرسول ﷺ: استيفاء العمل هو الأساس في قبوله، وأن الخالق عز وجل يستوفي كل أمة أجرها، ولكن التقاعس بشري.

أيضًا، ارتكز الحديث الشريف على الحوار بشكل خفي، فقد كان مطلع الحديث ثم المثل القصصي المقدم معتمدًا على بناء حواري يتمثل في المقارنة بين: جهود أتباع الديانات الثلاث، وقد نال المسلمون الأجر كاملاً لأنهم تحملوا مشاق العمل، وأتموه لوقته، فنالوا أجر من سبقهم، مصداقًا لقوله: "واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور"، ولننظر إلى لفظة "النور" الذي ختم بها الحديث، فهي معبرة عن أن نور المشكاة واحد في ضوئه، ولكن أين من يتلقى الضوء كاملاً: إيمانًا وعملاً وجهادًا.

في الحديث السابق أيضًا: عدم التمييز بين اليهود والنصارى في العمل، ويبدو من الترتيب في المثل القصصي أن الرسول يقصد بالفريق الأول: اليهود. والنصارى هم الفريق الثاني، أما المسلمون فهم الفريق الثالث، فهذا ترتيب زمني تتابعي، يبسط مفهوم الجهد البشري في تلقي الإيمان والنهوض به.

– عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: الخيل لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر: فأمَّا الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال بها في مرج أو روضة، فما أصابت في طِيَلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنه انقطع طيلها، فاستنت شرفًا أو شرفين، كانت آثارها وأرواثها

حسنات له، ولو أنها مرَّتْ بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقي كان ذلك حسنات له، فهي لذلك أجر. ورجل ربطها تغنيًا وتعففًا، ثم لم ينسَ حق الله في رقابها، ولا ظهورها، فهي لذلك ستر. ورجل ربطها فخرًا ورياءً ونواءً لأهل الإسلام، فهي على ذلك وزر(٢٠٢).

يعتمد هذا الحديث على المقارنة أيضًا، مقارنة بين حابس الخيل، فهي على ثلاثة أحوال: الأول: أن تكون أجرًا لرجل نذرها للجهاد في سبيل الله: محاربةً للكفر، وتحريرًا للأرض، ودفاعًا عن حرمات الإسلام، وهذا بأن يجعل صاحبها خيله نذرًا لله تعالى، فهي محبوسة من أجل ساعة الجهاد، فيُثاب على خدمته لها، وهي مثوبة تبدأ من ساعة تهيئتها للجهاد، فكل ما يقوم به صاحبها من أجلها ينال الثواب عليه، فلو قام على رعيها في حديقة أو مرج، فهو مثاب على ذلك، حتى لو أنه تركها ترعى أو تشرب من نهر غير عامد، يناله الأجر أيضًا، فالأجر موقوف على النية. وهذا مصداقٌ لقوله تعالى: { **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ** }(٢٠٣)، وهناك تناص (اقتباس) من المصطلح القرآني "رباط الخيل"، في تواشج ما بين القرآن والحديث الشريف، وتعميق الدلالات القرآنية، وهي واضحة على امتداد الأحاديث النبوية.

والحال الثاني: أن تكون سترًا أي مانعة عن النار لصاحبها، وهذه تكون لرجل ربَّى الخيل كمالٍ ورزقٍ له ولعياله، وأدَّى زكاة الله فيها، فهي ستر له.

والحال الثالث: أن تكون وِزرًا وسوءًا ومصدرًا لشقاء صاحبها وهذا لمن يربط الخيل تكبرًا بين الناس، وخيلاءً له ولعياله، فتزيد نفسه غرورًا، وسلوكه سطوةً، وتصرفاته عنفوانًا، فيضر من حوله من المسلمين وغير المسلمين، فتكون الخيل هنا وبالا وسيئات عليه. وهذه مصداق للآية الكريمة: { **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ**

٢٠٢) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الشرب والمساقاة، ص١٦٧، رقم ٢٣٧١.
٢٠٣) سورة الأنفال، الآية (١٦).

وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[٢٠٤]. والخيل المسوّمة هي الخيل المطهمة والراعية الحسان[٢٠٥]، وهي شهوة ومما يحبه المرء في دنياه، وتتقارب في الدلالة مع المركبات الحديثة الفارهة، كوسيلة ركوب.

في الحديث حضٌّ على الجهاد، وعلى العمل وإخراج الصدقات، وعلى التواضع، عبر تبيان سبيل تعامل المسلم مع الخيل، فإمَّا أن تكون للجهاد، أو تكون وسيلة رزق ومن ثم إخراج حق الله فيها من زكاة وصدقة، ثم النهي عن اتخاذها وسيلة للتكبر، بين الناس عندما يعتلون ظهورها.

استهل الرسول ﷺ: حديثه بإجمال ثم أعقبه بتفصيل، والإجمال جاء قاعدة أساسية في التعامل مع الخيل، وهو تعامل نفسي أخلاقي ينطلق من منظومة الإسلام في تربية النفس البشرية حتى لا يطغى الشح والتكبر عليها، وتصبح الممتلكات وسيلة للخير والجهاد والتواضع.

٢) قصص الرحمة بالحيوان:

ويُقصد بها القصص الواقعية التي بها مظاهر الحبو على الحيوان، وهي تختلف عن النوع السابق، في كونها قصصًا حقيقية، كما ورد في تفسيرها، وقد رواها الرسول ﷺ: من باب التقرير الواضح للحادثة التي وقعت بالفعل، فالرسول يعيد ذكرها، مؤكدًا وقوعها، ومبينًا نتيجة الفعلة ذاتها ثوابًا أو عقابًا.

– عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: بينما رجل يمشي، فاشتدَّ عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له. قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرا ؟ قال: في كل كبد رطبة أجر" [٢٠٦].

---

٢٠٤) سورة آل عمران، الآية (١٤).

٢٠٥) تفسير ابن كثير، ج١، ص٤٠٤، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقد ورد في التفسير أن حب الخير على ثلاثة أقسام، هي المذكورة في الحديث الشريف المتقدم.

٢٠٦) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الشرب والمساقاة، ص١٦٥، رقم ٢٣٦٣.

هذا الحديث نزل في أحد رجال بني إسرائيل؛ نال مغفرة من الله تعالى لأنه سقى كلبًا كاد يموت عطشاً، فقد نزل بئرًا فشرب، فلما صعد وجد كلبًا يلهث من العطش، حتى أنه يلحس التراب لحسًا، فنزل البئر، فملأ خُفَّه (حذاءه) ماءً، ثم وضعه في فمه، وصعد البئر، وسقى الكلب، فنال الشكر من الله تعالى، وأيضًا المغفرة الواسعة.

ومن الموقف المذكور، خرجت الحكمة الشاملة من الحديث أن "في كل كبد رطبة أجر"، فالمراد من الرطوبة الحياة، والرطوبة تتأتى من الماء [٢٠٧]. وهذا الأمر على سبيل الوجوب.

ونرى في الحديث أن الصحابة طرحوا سؤالاً على الرسولﷺ: فهل ينالون ثوابًا إذا أحسنوا للبهائم عامة؟، وجاءت الإجابة مؤسِّسة لحكم عام في الترفق بالبهائم. وقد اعتمدت بنيةُ الحديث القصةَ مطلعًا، ومن ثم كان الحوار استفهاميًا عن ثواب من يحسن للبهائم في العموم.

- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: (عُذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا، فدخلت فيها النار). قال: فقال والله أعلم: لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض [٢٠٨].

فهذه المرأة دخلت النار لأنها حبست القطة، لم تقم بإطعامها وسقيها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض؛ أي هوامها وحشراتها، وقد جاء في شرح الحديث الشريف: أن المرأة غير مأمورة بقتل القطة، لأنها لم تفعل شيئًا، وإنما حبستها دون ذنب، فدخلت النار[٢٠٩]. والقصد هنا: الرأفة بالحيوان ورعايته وعدم

---

٢٠٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب المساقاة، فصل سقي الماء. حيث يقول الإمام النووي تعقيبا على الحديث الشريف : إن عمومه مخصوص بالحيوان المحترم وهو ما لم يؤمر بقتله فيحصل الثواب بسقيه، ويلتحق به إطعامه وغير ذلك من وجوه الإحسان إليه.

٢٠٨) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الشرب والمساقاة، ص١٦٦، رقم ٢٣٦٥.

٢٠٩) فتح الباري، كتاب المساقاة، فضل سقي الماء، وقد جاء فيه : " قال ابن المنير: دل الحديث على تحريم قتل من لم يؤمر بقتله عطشا ولو كان هرة وليس فيه ثواب السقي ولكن كفى بالسلامة فضلا.

إيذائه. وجاء بناء الحديث: ذكر القصة بإيجاز شمل حبس القطة، حتى الموت جوعًا، ثم العاقبة أن دخلت صاحبتها النار في الشطر الأول. ثم جاء الشطر الثاني: جاء تعليلاً لسبب دخولها النار، وهو تعليل منطلق من رحابة الرحمة العامة بمخلوقات الله تعالى، فإن لم نرعها، فلنتركها تنل رزقها المقدر من قبل الله تعالى، فهو رازقٌ مخلوقاته، فكأننا أشبه ببناء حواري على شطرين: شطر قصصي، وشطر تعليل له.

٣) قصص الصالحين من الأمم السابقة:

وهي قصص مروية عن الصالحين من الأمم السابقة، وقد جاءت ضمن سياق الحكاية الطويلة نوعًا ما، بها الكثير مما يمكن التحاور حوله، وهي قصص مكتملة الدلالة، واضحة في إرشادها، تبرهن من خلال كونها حدثت بالفعل على كثير من القيم الإنسانية والإسلامية العظيمة.

- عن عبد الله بن عمر ﵄ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجّيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فناء بي في طلب شيء يوما، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج، قال النبي ﷺ: وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي، فأدرتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمَّتْ بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي

وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها، قال النبي ﷺ: وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبد الله أد إلي أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك، من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئًا، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون) [٢١٠].

الحديث السابق كان حوارًا قصصيًا مرويًّا بين الرسول ﷺ وصحابته، وشفاهية الحوار واضحة من بنيته المعتمدة على الحكي المتمهل، الذي نجد أن الرسول يتوقف فيه من آن لآخر، كما يذكر الراوي مثلا: "قال النبي ﷺ: قال الثالث: اللهم... ". فهذا يعني أن الرسول كان يتوقف متأملاً وقع سرده الأحداث على وجوه مستمعيه، وربما يعن لأحدهم سؤال، ولكن متن الحديث يخلو من السؤال لطبيعة التشويق الذي يعتمده المصطفى ﷺ ، ولأن الأحداث واضحة متعللة في تتابعها.

أكَّد الرسول ﷺ في مطلع الحديث على أن القصة واقعة بالفعل، حين قال: "..ممن كان قبلكم "، فهذا توكيد على واقعية الشخوص والأحداث، خاصة أن القصة تنقل السامع إلى أجواء إيمانية خالصة، لا مجال للاجتهاد البشري فيها، فلا سبيل للخروج من كهف في باطن جبل، سُدَّ بابه بصخرة عظيمة، إلا باللجوء إلى المولى سبحانه وتعالى، فقد انعدمت القدرة البشرية في هذا الموقف، وامتحنت القلوب، وبدأت مناجاة العباد لربهم، فالأول أنجاه الله بإخلاصه في طاعة والديه، بموقف أخفض الابن جناح الذُلَّ من الرحمة فيه، حيث ظلَّ واقفًا حاملاً إناء الغبوق، منتظرًا استيقاظ والديه المسنين، حارمًا أبناءه منه. والثاني تعفف عن الوقوع في الفاحشة بعدما امتلك جسد ابنة عمه وهي أحب الناس إليه، وقام خوفًا

٢١٠) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الإجارة، ص١٣٤، رقم ٢٢٧٢.

من عقاب الله. والثالث: يؤدي أمانة أجر رجل عمل عنده يومًا، ولكنه يؤديه أضعافًا مضاعفة: خيلاً ورقيقًا وأنعامًا، ولو شاء لاكتفى بإعطاء الأجير أجره فحسب، خصوصًا أنه غادر دون أن يطالب بأجره.

المواقف الثلاثة فيها أمور عدة:

أولها: إنها تمثل أشد لحظات الإخلاص لله تعالى.

ثانيها: إنها متدرجة في طبيعة الاختبار ذاته، فالموقف الأول أقل امتحانًا للقلب من الموقف الثاني حيث شهوة الجسد، ورغبة النفس، ولكنه يترفع، أما الثالث فهو يعطي ثمرة تعبه في استثمار أجر الرجل، عن طيب خاطر، وحب النفس للمال شديد.

ثالثها: إن الابتلاء متنوع في كل موقف ما بين فتنة الولد، وفتنة المرأة، وفتنة المال.

رابعها: إن القيم إنسانية الطابع، ما بين طاعة الوالدين، وإعفاف النساء، وإعطاء حق الأجير/ العامل، وهي قيم سامية مشتركة بين البشر، في الأديان السابقة بدليل أن القصة حدثت في أمم سابقة، ثم عززها الإسلام وشدد عليها.

خامسها: إن بناء القصة يعتمد على المناجاة الخالصة للعبد مع ربه، بأشد مواقف الإخلاص والعبودية المطلقة لله تعالى، وهذه المناجاة حوار موصول مع الله.

سادسها: إن الطابع الحواري واضح في ثنايا القصة، فكل موقف يجعل النفس تتحاور حول مدى ترسخ هذه القيم في النفس، وهي قيم أساسية في نفس كل مسلم، وثابتة في مختلف الأديان السماوية المنزلة من عند الله تعالى. كما أن الشخصيات الثلاثة بمواقفها المختلفة شكَّلت بناءً حواريًا فيما بينها، فالتنوع يجعل الذهن متفكرًا، مقارنًا، طارحًا الأسئلة، أي متحاورًا مع الشخصيات والأحداث.

سابعها: إن هذه القصة، وغيرها من القصص النبوي، تثير في السامع الشعور بالتفاؤل، والأمل في الله تعالى دائمًا، وأن الأمور مهما اشتدت، وعظُم سوادُها فإنها إلى انفراج مادام العبد حسن الظن، صادق التوكل على الله تعالى. والتفاؤل

شعور "بتوقع الخير الذي يؤدي إلى الرضا والفرح والسرور، ثم السعادة، وما ينعكس عنه من أثر إيجابي...، يدفعه إلى البحث عن وسائل عمل الخير، والرغبة في فعله، والاستزادة منه" (٢١١)، والهدي النبوي متوافق مع الفطرة البشرية، لأن النفس تميل بطبعها إلى الأمل، والرغبة في الخير. أما التشاؤم من المنظور الإنساني والإسلامي؛ فأمرٌ يحبط النفس ويؤدي إلى عدم الرضا، والشعور بالحزن، والكره والغضب، وانقباض النفس، وهذا كله له أثر سلبي على توجه الإنسان نحو الخيرات، بل انعدام الرغبة في الفعل(٢١٢). وكما يقول الرسول ﷺ (فيما يرويه أبو هريرة): "لا طيرة، وخيرها الفأل. قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة، يسمعها أحدكم" (٢١٣). والكلمة الصالحة في مجملها تغرس الفأل الحسن في النفس، وتمثل قصص الرسول كلها أملاً في النجاة والفوز والفلاح، والتوفيق من الله حاضر في كل موقف، ماداد العبد مرتكنًا، متوكلاً على ربه تعالى.

– عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل، سأل بعضهم بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدًا، قال فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانًا ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلا، فرضي بك، وسألني شهيدًا فقلت: كفى بالله شهيدًا، فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي أسلفه، ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها

---

٢١١) التفاؤل والتشاؤم في الحديث النبوي (دراسة موضوعية)، د. أمين محمد القضاة، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد (٥٢)، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ص ٩٨.
٢١٢) انظر : المرجع السابق، ص٩٨ وأيضا : ص ١٠٣.
٢١٣) صحيح البخاري، كتاب الطب، رقم ٥٧٥٤، ج٤، ص٤٦.

المال فأخذها لأهله حطبًا فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشدا[٢١٤].

هذه القصة تعبِّر عن الصدق العالي مع الله تعالى، فمن أحسن الظن بالله، كان الله تعالى عند ظنه، وقد أشهد المقترض الله على أنه أخذ الألف دينار، وجعل الله وكيله، وأصدق الله وعده. فلما حان موعد الأجل، لم يجد مركبًا، فأدخل الألف دينار في خشبة، ثم ألقاها في البحر، وقد وصلت الألف دينار إلى المقرض عبر البحر، وكان الله تعالى عند حسن ظن الرجلين، فلما سافر المقترض بالألف الثانية؛ خشية أن تكون الأولى ضاعت في البحر، أخبره المقرض أنه تسلمها في اليوم المحدد عبر خشبة جاءته في الماء.

في القصة تسليم مطلق بقدرة الله، وصدق الرجلين فيما بينهما، وتقيم حوارًا غير مباشر في أعماق السامع، إنه حوار مع القيم العليا المترسخة في القصة: الإخلاص، وحسن الظن بالله، والوفاء.

بناء القصة اعتمد على السرد والحوار، والسرد كان مركزا للغاية، ينقل الدلالة المباشرة، عبر مشاهد ثلاثة: مشهد الإقراض، ثم مشهد البحر، ثم مشهد اللقاء الثاني بين الرجلين، وفي كل مشهد نجد صدق الذات مع الله تعالى. وفي المشهدين الأول والثالث: الحوار مكثف بين الرجلين، وكلاهما يثق في الآخر.

– عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: كان رجل من بين إسرائيل يقال له جريج يصلي، فجاءته أمه فدعته فأبى أن يجيبها، فقال: أجيبها أو أصلي؟ ثم أتته فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه الموسات، وكان جريج في صومعته، فقالت امرأة: لأفتنن جريجًا، فتعرضت له، فكلمته فأبى، فأتت راعيًا فأمكنته من

٢١٤) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الكفالة، ص١٤٠، رقم ٢٢٩١.

نفسها، فولدت غلامًا، فقالت: هو من جريح، فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب، قال: لا، من طين [٢١٥].

فحين أبى جريج أن يجيب أمه دعت عليه أن يريه الله وجوه الغانيات المومسات، واستجاب الله لدعائها، وسعت إحداهن لتغويه، ولكنه رفض وتعفف، فذهبت الغانية إلى أحد رعاة الغنم، فزنا بها، وحملت، ووضعت سفاحًا غلامًا، وادعت على جريج أنه والد الغلام، فيثور قومه، وينزلوه من صومعته ويهدوموها، وهنا يلوذ جريج بالصلاة، فيدعو، ويستجيب الله لدعائه، وينطق الغلام أن الراعي أبوه، وحين يرى القوم هذا المشهد، يعتذرون، ويعرضون عليه أن يبنون صومعته من الذهب، فيرفض، ويفضل الطين، ليعود إلى معية الله، وزهده.

قي القصة عدة قيم سامية: طاعة الأم، الاستجابة إلى الأم عند ندائها، وأن دعوة الأم مستجابة، وأن الصلاة ملاذ العبد في محنته، وأن الدعاء مخ العبادة.

جاء بناء القصة في مواقف حوارية موجزة: بين الأم وجريج، وجريج والقوم، وجريج والغلام، فالحوار أقصر السبل الجمالية في الفن القصصي.

٤) قصص من الواقع المعيش:

وهي قصص رويت للرسول عايشها الرسول ﷺ، وكان طرفًا فيها، ومحاورًا لشخوصها، وقد دُوِّنت الكثير منها في كتب السيرة والصحاح، فكانت توثيقًا رائعًا لحياة زاخرة بالقيم والهداية، ونرى في هذه القصص إعلام الله تعالى بأمور غيبية إلى رسولهﷺ.

- عن أبي هريرة ﷺ قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت

٢١٥) صحيح البخاري، ج٢، كتاب المظالم والغصب، ص٢٠٢، رقم ٢٤٨٢.

فقال النبيﷺ: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة. قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة، وعيالاً فرحمته فخليت سبيله، قال: أما إنه قد كذبك، وسيعود. فعرفت أنه سيعود، لقول رسول اللهﷺ: إنه سيعود. فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال، لا أعود، فرحمته فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: يا أباهريرة ما فعل أسيرك. قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته فخليت سبيله، قال: أما إنه كذبك، وسيعود. فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات تزعم لا تعود، ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}. حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: ما فعل أسيرك البارحة؟. قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: ما هي؟. قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح – وكانوا أحرص شيء على الخير – فقال النبي ﷺ: أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة. قال: لا. قال: ذاك شيطان [٢١٦].

في هذه القصة نجد ثلاثة شخوص: الرسول ﷺ، أبا هريرة الصحابي الجليل، والشخص الذي يحاور أبا هريرة (الشيطان). فقد أمسك أبو هريرة برجل كان يسرق من صدقات شهر رمضان المبارك، فاسترحمه الرجل، مدعيًّا الفقر وحاجته وحاجة عياله، فتركه أبو هريرة، فأعلم الله تعالى رسوله الكريم بما حدث، فسأل الرسول أبا هريرة عن خبر الرجل، فلما أخبره أبو هريرة بما حدث، أخبره الرسول أن هذا الرجل سيعود إليه على نحو ما جاء في أحداث القصة، وبالفعل يعود الرجل، مرتين، ويحاور أبا هريرة، ويعلمه آية الكرسي، مثلما علمه الرسول

٢١٦) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الوكالة، ص١٤٩، رقم ٢٣١١.

ﷺ، ويقر الرسول أن هذا الرجل شيطان، وأنه علّم أبا هريرة آية من القرآن فصدق وهو من الكاذبين، وجنّب الله أبا هريرة آثام الشيطان ومسّه وأنجاه منها.

في القصة أمور عدة: إن الرسول ﷺ يحاور أبا هريرة، الذي تعرض لفتنة شيطان، ويهديه إلى حسن التصرف في هذه المواقف، حيث يعتصم بالقرآن الكريم، وبهدي آية الكرسي، فهي حافظة من كل شيطان آثم.

وفيها أيضًا مظهر لنبوة محمد ﷺ حيث يعلم الغيب، وكينونة هذا الرجل الذي أراد أن يفتن أبا هريرة، ويخلط سمه بعسل القرآن، وقد ظل ثلاثة أيام ينبئ أبا هريرة بالمستقبل حتى أعلمه حقيقة الرجل. وكون ظهور الشيطان في هيئة رجل هو واقع، فالشياطين كائنات يمكنها أن تظهر في صور مختلفة، لتفتن الناس وتغويهم، وتدس في سبيل ذلك خبيثها من القول.

- عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: انطلق نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: {الحمد لله رب العالمين}. فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبة. قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقي: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله فذكروا له، فقال: وما يدريك أنها رقية. ثم قال: قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهمًا. فضحك النبي ﷺ[٢١٧].

---

٢١٧) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الإجارة، ص١٣٦، رقم ٢٢٧٦. وذكر أيضا : قال ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله. وقال الشعبي: لا يشترط المعلم، إلا أن يعطى شيئا فليقبله. وقال الحكم: لم أسمع أحدا كره أجر المعلم. وأعطى الحسن دراهم عشرة. ولم ير ابن سيرين بأجر القسام بأسا. وقال: كان يقال: السحت: الرشوة في الحكم، وكانوا يعطون على الخرص.

كان الرسول ﷺ في هذه القصة شاهدًا مقرًا على أحداثها، وهي قصة تثبت التداوي بآيات القرآن الكريم خاصة آيات فاتحة الكتاب؛ وقد شفى زعيم القوم بهذه الآيات، وحين عرض الأمر على الرسول ضحك مُقرا أن الفاتحة شفاء لأمراض الجسد، وقد كان الموقف توفيقا من الله للرجل الذي أرقى زعيم القوم وأشفاه بفضل فاتحة الكتاب.

القصة بهذا الشكل تلامس الحدث، فهي مروية على لسان أبي سعيد راوي الحديث، الذي رواها للرسول ﷺ ومن ثم جاء تعقيب الرسول بأن المداوي بالفاتحة قد أصاب، وطلب سهمًا معهم فيما أخذوه، ثم ضحك الرسول ﷺ، فهو سعيد بأن أحد هؤلاء النفر المسلمين قد اهتدى بخالص إيمانه إلى الاستشفاء بأم الكتاب (الفاتحة).

– عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها دَخَلَتِ امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا فَسَأَلَتْ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: مَنِ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ"[٢١٨]

الموقف عظيم التأثير في النفس، فهذه امرأة لا عائل لها، ومعها ابنتان صغيرتان، وهن يعانين الفقر الشديد، بدليل أنهن يسألن الطعام، وحين يغدون إلى بيت رسول الله ﷺ، يسألن زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها ، ولم تجد السيدة عائشة إلا تمرة واحدة، أعطتها المرأة، فقسمتها المرأة بين ابنتيها. وحيت روت السيدة عائشة الحادثة إلى الرسول، جعل من كفل هذه البنات ينال الستر من النار يوم القيامة.

في الحديث دلالات عالية: فبيت السيدة عائشة رضي الله عنها ، زوج الرسول، حاكم المسلمين، ورسولهم وقائدهم، لا طعام فيه، وهذا دليل على الزهد وكثرة الصدقات من الرسول وآل بيته. كذلك، فإن المجتمع في المدينة المنورة فيه تكافل كبير وكان أهل بيت النبي يتقدمون الناس في التصدق، فها هي الأم وابنتاها يدخلن على بيت رسول الله، وينلنَّ ما فيه من على قلته الشديدة ويرضين، لأن في علمهن المسبق أن أزواج النبي كثيرات الصدقة والبر.

٢١٨) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، الحديث رقم ٢٠٣٩.

لم يترك الرسول الحادثة دون أن يذكر توجيهًا ساميًا، وقد انتقل فيه من الخاص إلى العام، فبشَّر كافل البنات والأم، بشارة أخروية، لينقل القضية كلها إلى دائرة الإثابة، والحفز على رعاية اليتيمات والأرامل، رغم أن الحديث لم يشر إلى أن البنتين يتيمتان، إلا أن السياق دال على أن لا كفيل لهن، فجاء التوجيه النبوي السامي إلى أهمية الاعتناء بهن، على العموم، سواء أن يكفلهن متطوعًا من غير قرابة، أو يكون قريبًا لهن فيتولى أمرهن.

– عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا" (٢١٩).

الموقف غاية في البساطة: رجل كبير السن، يريد النبي في أمر، والنبي بين الناس وهم جالسون، وكل ما حدث: أن القوم تباطئوا في الإفساح له؛ ليقترب من النبي ﷺ، فسارع النبي بترسيخ قاعدة مهمة، تتصل بكيفية التعامل مع كبير السن، وصغيره، إنها قاعدة الرحمة، التي تبدأ بأبسط السلوكيات: الإفساح في المجلس، وتتسع لتشمل القول والفعل والإحسان. وقد ركز الرسول على الفئة العمرية: صغار السن وكبارهم، لأنهم الطرف الأضعف في الاهتمام، فهم ما يكونون غير ذي قوة: في المال والجسد والعمل.

٥) قصص اليوم الآخر:

وهي أحاديث تشير إلى ما سيحدث يوم القيامة من مواقف وأحداث، وقد صيغت بشكل قصصي، يقربنا من الصورة التي ستقع بها، وهو شكل فيه وصف للشخوص والمكان والأحداث بدقة وكثافة لغوية.

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَرَجَعَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ فَقَالَ اذْهَبْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ

٢١٩) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، الحديث رقم ٢٠٤٣.

بِالْمَكَارِهِ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَى النَّارِ وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَرَجَعَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لاَ يَدْخُلُهَا أَحَدٌ. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ فَقَالَ ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا. فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ فَرَجَعَ وَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لاَ يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَهَا"(٢٢٠).

إننا أمام قصة متكاملة جوانب السرد: الوصف، المتكلمين، الحوار. وجاء الزمان في المطلق الأبدي الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وكذلك المكان في عليين. كان الحوار هو الأساس في بناء القصة، فالله تعالى، خلق الجنة والنار، وجعل مسببات وكمال النعيم في الجنة، وكمال القبح والعذاب في النار، وهنا نجد الحوار بين الله تعالى، وبين جبريل عليه السلام، فالجنة لو سمع بها أحد على ما فيها من خيرات ونعيم أبدي لا حدود له، ولا يخطر على قلب بشر، فإن الناس سيدخلونها، ويتركون النار بما سمعوا عنها من مشاهد العذاب الأبدي. فيأمر الله تعالى أن تُحَفَ الجنة بالمكاره والنار بالشهوات، والمكاره مختلف الواجبات التي يقوم بها المرء وتشمل اجتناب المحرمات (الشهوات المختلفة)، وفعل الطاعات وهي قد تثقل على النفس. أما الشهوات فهي كل ما ترومه النفس وتتمناه مثل شهوتي الفرج والمال، وتسلك في سبيل ذلك مسالك تخالف الشرع، وتضر الآخرين كالزنا والسرقة والنصب والاحتيال والربا.

فمقصد الحديث: أن الجنة ذات نعيم غير محدود، ولكن من طلبها فعليه أن يتجنب المحرمات وما تشتهيه نفسه بطريق غير شرعي، ويتحمل مشقة ذلك على نفسه، ولكن الثمرة أن شهواته سينالها كاملة في الجنات العلا، أما إذا أراد راحة نفسه، وإشباع شهواتها، فإن النار عاقبته في الآخرة. وقد صيغ الحديث بقالب حواري جذاب، بين الله تعالى وسيد الملائكة جبريل عليه السلام، والحديث موجز ولكنه عالي الإشارات والدلالات حول اكتمال اللذائذ في الجنة، واكتمال العذاب في النار.

---

٢٢٠) سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن على بن شعيب بن على بن سنان بن البحر الخراساني، كتاب الأيمان والنذور، الحديث رقم 3779، نشر موقع www.al-eman.com (نداء الإيمان)، مكتبة التراث الإسلامي.

ونلاحظ سمة تميز الأسلوب اللغوي للرسول ﷺ، تتمثل في إعادة توظيف المفردات في دلالات جديدة، فيما يسمى "دلالات اللفظة في السياق"، ويعنى بـــ "بيان دلالات الألفاظ وتحديد معنى الكلمة وإزالة الغموض والكشف عن المعنى المراد في الألفاظ ذات الدلالات المتعددة، التي لا تُعرَف دلالتها، ولا تتضح إلا من خلال السياق" (٢٢١). ولابد أن يكون في السياق قرائن تسهم في عملية فهم النصوص وبيان معانيها مثل القرائن اللفظية في النص أو نصوص أخرى تسهم في تبيان الدلالات المقصودة(٢٢٢) والقرائن الحالية وهي تعتمد على بيان حال الأشخاص المتكلمين والمخاطبين وغرض المتلكم وبيئة الخطاب(٢٢٣).

فلفظتا: (المكاره، والشهوات)، اكتسبتا دلالتين جديدتين؛ فالمكاره تعني اجتناب ما يكرهه الإنسان من ملذات الحياة المحرمة، وإجبار النفس على فعل الطاعات. أما الشهوات فتعني اللذائذ المحرمة التي تغوي النفس. وقد جاء الفعل "حُفّت" ليعطي الجنة والنار دلالة الصورة الخيالية (الاستعارة المكنية) حيث شبه المكاره والشهوات كسورين يحفان بالجنة أو بالنار، فالسياق للجنة والنار في الحديث الشريف، أعطى الدلالات المشار إليها للمكاره والشهوات.

إن قضية السياق في الحديث النبوي واضحة بجلاء، ويمكن أن نقرِّر أن هناك قاموسًا لغويًا؛ جديد في استخداماته اللغوية أحدثه الرسول ﷺ في تعبيراته، ويمكن أن نرصد ألفاظ هذا القاموس من خلال إعادة قراءة مفردات الحديث النبوي الشريف بشكل أفقي، وهذا دال على ثراء المنشئ، وعمق رسالته.

– عن صفوان بن محرز المازني قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما آخذ بيده، إذ عرض رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول:

---

٢٢١) السياق وأثره في دلالات الألفاظ (دراسة أصولية)، د. عبد المجيد محمد السوسوه، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد (٧٤)، رمضان ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، ص٢٤.

٢٢٢) المرجع السابق، ص٣٠، والقرائن اللفظية على نوعين : المتصلة : وتكون في مبنى النص نفسه، والمنفصلة وتكون في نصوص أخرى مستقلة عن النص، ولا نفهم الدلالة إلا باستحضار النص الآخر.

٢٢٣) المرجع السابق، ص ٣٩، والقرائن الحالية هي التي تحف بالخطاب من ظروف وملابسات ومقامات مختلفة، والتي سماها العلماء بسياق الحال أو المقام.

أتعرف ذنب كذا: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق، فيقول الأشهاد: {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين} [٢٢٤].

القصة مشهد يعبِّر عن لحظة الحساب ثم المغفرة من الله تعالى، يوم الحساب، حين يحضر العبد المؤمن بمعاصيه في الدنيا، وهي معاص لا ترقى لمعاصي الكافر ولا المنافق، ونجد أن الرسول ﷺ يصف الموقف بكلمات قليلة، ولكنها تتخذ طابع القصة المشهد الواحد، فالله تعالى يقرّب العبد المؤمن يوم القيامة، ويعرّفه بذنوبه، فيقر المؤمن بما فعل، وتعظم الذنوب أمام عينيه، ويظن أن جهنم جزاؤه، إنها الهلاك، إلا أن الله تعالى يخبر المؤمن بستره الذنوب عليه في الدنيا، ومغفرتها له في الآخرة، أما الكافر والمنافق فلهما لعنة الله على الظالمين.

القصة تقارن بين شخصيات ثلاثة: المؤمن، الكافر، المنافق، وتضع الأخيرين في خندق واحد، بينما ينجو المؤمن بصدقه وإخلاصه وينال مغفرة الذنوب والجنة. فالقصة تذم سلوك المنافق، الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر، ويكون كالسوس ينخر في المجتمع المسلم. في الوقت التي تبشر به المؤمن المخلص بالمغفرة، فالدلالة غير المباشرة في القصة: أن الإيمان الصادق والتوحيد الحقيقي هو الأساس في قبول الأعمال والسبيل لمغفرة السيئات. فالمؤمن ذو إيمان ثابت، وتوحيد خالص يضاد الكفر والنفاق.

وقد كان الحوار ديدن الموقف بين الله تعالى، وعبده المؤمن، أما رد الله على الكافر والمنافق فقد جاء بآية قرآنية، ليكون الموقف موضحًا ماهية الكذب على الله وهو إبطان الكفر.

– عن أبي هريرة ﷺ قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، قال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين، فقال اليهودي: والذي

٢٢٤) صحيح البخاري، ج٢، كتاب المظالم والغصب، ص١٩٠، رقم ٢٤٤١.

اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ، فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبيﷺ المسلم، فسأله عن ذلك فأخبره، فقال النبي ﷺ: لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأصعق معهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش جانب العرش، فلا أدري: أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله [٢٢٥].

القصة تشمل ثلاثة مواقف، الأول: حادثة واقعية، تتمثل سباب الرجلين، المسلم واليهودي، وكلٌ يتباهى بنبيه. الموقف الثاني: شكوى اليهودي للرسول ﷺ من لطمة المسلم له. الموقف الثالث: ذكر الرسول ﷺ موقف صعق الناس يوم القيامة، فلما يفيق محمد من الصعقة، يجد موسى عليه السلام جانب عرش الرحمن، فلا يعلم هل استثنى الله موسى من الصعقة، أو أفاق موسى قبل الرسولﷺ.

في الموقف دلالات عديدة: أولها: كيف أن الرسول ﷺ كان ملاذ الناس في مجتمع المدينة، فهو قاض محايد بين المسلم واليهودي، واليهودي قبل بحكم الرسول في خصومته مع المسلم. ثانيها: إن حكم الرسول كان رفضا لسلوك المسلم، فلا تمييز بين موسى ومحمد، فكلاهما رسول. ثالثها: إن الإسلام يؤمن بفضل موسى، ويعترف به، والرسول يقر بمنزلته العالية عند الله تعالى.

• • • •

ونشير في نهاية الفصل إلى:

إن البناء الحواري في القصص النبوي هو الأساس، فهو يتسق مع طبيعة السرد الشفاهي للأحاديث الشريفة، حيث تتميز قصص الرسول بالكلمات الموجزة التي تنقل أحداث القصة، وهذا النقل يعتمد على أمور في بناء القصة، يمكن أن نجملها مما تقدم من القصص:

---

٢٢٥ صحيح البخاري، ج٢، كتاب الخصومات، ص١٧٩، رقم ٢٣١١.

– إن السرد في القصص النبوي قصير عامة، لأنه يُلَقى على مستمعين وبالتالي فإن الرسول حريص على الكثافة اللغوية، والعرض بأقل العبارات.

– في السرد القصصي يمكن تمييز "الوقفة الوصفية"[٢٢٦] التي تصف الموقف بدقة، خاصة أن القصص ذات مكان وزمان محدودان، فجاءت القصص النبوية في مجملها قصيرة، تصف أحداثا محددة وبشخوص قلة، رغبة في إيصال رسالتها بشكل ميسر فلا يضيع السامع بين أحداث القصة وطولها.

– في السرد النبوي حوار "درامي الطابع"، والحوار أكثر الآليات القصصية في إيجاز الحدث، وتعميق الدلالة. وفيه أيضًا كلمات من الرسول ﷺ (بوصفه راويًا للقصة) تساهم في تطوير الحدث القصصي، وإفهام المتلقي مغزى القصة[٢٢٧]،

إذا كان الفصل الثاني تناول أشكال الحوار في الأحاديث الشريفة، فإن الفصل الثالث، سيتطرق إلى أبرز القضايا وطبيعة الشخصيات التي حاورها الرسول ﷺ وهي قضايا متعددة، كان الحوار فيها أساسًا في الدعوة.

---

٢٢٦) قاموس السرديات، جيرالد برنس، ترجمة : السيد إمام، دار ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠٣م، ص٤٤.

٢٢٧) السابق، ص٤٥.



الفصل الثالث

الحوار مع مختلف الشخصيات والعقول

كثيرة هي القضايا التي عالجها الرسول ﷺ في حواراته مع الآخرين، فالحوار جزء محوري، بل هو الوسيلة الأساس في الدعوة الإسلامية، وهي تلج الأفئدة وتخاطب العقول، لم يمتلك الرسول الدينار والدرهم، ولا المنصب والجاه، ولا العتاد والسيف، فلم يجذب القلوب بمغريات مادية، ولم يقهرها بالسيف والسلطان، بل امتلك القرآن والهداية والعقيدة البسيطة الصافية، والمسلك الحسن، والتربية الحقيقية للنفوس.

لم يسطّر الرسول ﷺ الصحائف؛ فقد كان أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه امتلك فصاحة عالية، وفهم دقيق، وعلم واسع مستمد من القرآن، ومن الوحي، وقدرة على الغوص في القلوب، وقراءة الوجوه، ولا عجب فقد أدبه ربه، فأحسن تأديبه. فتحلقت القلوب حوله، ترتشف من رحيقه.

وقد جعل الرسول ﷺ مواقف الحياة المختلفة، وسيلة للدعوة، وترسيخ الإيمان وتعميق المفاهيم، وإثارة مختلف القضايا، ومناقشتها بشكل هادئ، وعلى مستويات متعددة من العقول، وتحاور في سبيل ذلك مع الكثير من الناس مختلفي الفئات، متفاوتي الفهم، متعددي الثقافة.

وفي هذا الفصل ستتم مناقشة بعض أنماط الأشخاص ومستوياتهم التي حاورها الرسول، وهم متعددون بتعدد الأمكنة والأزمنة في مسيرة الدعوة، وسيكون تناولنا لهذه القضايا بشكل أفقي، حيث سيتم عرض هؤلاء الناس الذين حاورهم الرسول ﷺ من حيث كيفية طرح القضية، واختلاف الطريقة حسب عقول من يحاورهم، وكيف كان الحوار وسيلة لإيصال القضية وتعميقها في النفوس. فمحور القضايا هنا: أن يكون الحوار أساسًا في طرحها، وفي طريقة معالجتها، وربما يكون هناك تداخل بين بعض المحاور، ولكنه لا يمنع من تكامل الطرح، وبالتالي سنتعرف على كيفية معالجة الرسول للقضية عبر حواراته العديدة في المواقف المختلفة، عبر ثلاثة مباحث:

- مع المشركين
- مع البسطاء وحديثي الإسلام
- حول تقلبات النفس المسلمة.

المبحث الأول

الحوار مع المشركين

طبيعي أن يتحاور الرسول مع الكفار والمشركين في أول بعثته، فقد كانت البيئة التي عايشها، وبُعِثَ فيها، يعشش الشرك في أجنابها، وتتبارى القبائل والعشائر في اتخاذ أصنام لها، مما جعل عدد الأصنام المنصوبة حول الكعبة المشرفة تتجاوز المئات، وأفسد الشرك السلوك، فكانوا غلاظ الألسنة، شديدي القسوة على الرسول ﷺ، وقد تحمّل الرسول عنتهم، وصبر على أذاهم، واستبدل الرأفة بقسوتهم، وظل يحاورهم، ويناقشهم، حتى لانت قلوب بعضهم، وإن ظل الأكثرون على عنادهم حتى هاجر من مكة إلى المدينة.

وفي هذا المبحث نتناول عدة مواقف، بين الرسول ﷺ وبين أهل مكة من الكفار، لنتعرف منهجه في الحوار مع هؤلاء المشركين، ولنستعرض أبرز المواقف التي كانت بين الرسول والكفار.

▪ الموقف الأول :

الحوار مع عمه أبي طالب، وهو لا يزال على الشرك.

لمَّا اشتد أمر الرسول، وذاعت دعوته في مكة المكرمة، جاء وفدٌ من كُفَّار مكة، إلى أبي طالب عم الرسول ﷺ، وراحوا يتفاوضون مع أبي طالب: فـــ " قالوا له: يا أبا طالب إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا وإنَّا قد استنهيناك (حذرناك) من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنَّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا (عقولنا)، وعيب آلهتنا حتى تكفه (تمنعه) عنا أو ننازله وإياك في ذلك

حتى يهلك (يُقتل) أحد الفريقين". انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ ولا خذلانه [٢٢٨].

نلاحظ في هذا الموقف، العلاقة الحميمية بين الرسول ﷺ وبين عمه أبي طالب، رغم أن الأخير ظل على الشرك، ولكنه كان يناصر ابن أخيه محمدًا، وكان يحميه من عنف الكفار، وإرهابهم. وفي المجتمع المكي كانت العلاقات العشائرية لها دورٌ كبير في حماية الأفراد. وقد اشتكى الكفارُ الرسول محمدًا ﷺ إلى عمه أبي طالب، فاتهموه أنه شتم آلهتهم، وسخر من عقولهم، وأرادوا من أبي طالب أن يمنعه أو يتركهم عليه، فوجد أبو طالب نفسه يواجه قومه، وهم غاضبون عليه، فقرَّر أن يحاور الرسول محمدًا، ابن أخيه.

"بعث (أبو طالب) إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني، فقالوا: كذا وكذا الذي قالوا له، فابق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بدو وأنه خاذله (متخل عنه) ومسلّمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال رسول الله ﷺ: يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك (أموت) فيه ما تركته. قال: ثم استعبر (دمع وبان والتأثر عليه) رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب. فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ. فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمتك لشيء أبداً [٢٢٩].

فقد أرسل أبو طالب إلى ابن أخيه، فجاءه محمد، وراح أبو طالب يوضح له الأمر، وأن القوم يشتكون من دعوته إلى دين جديد، ونقل إليه ما قالوه خاصة أنهم عرضوا عليه المال والجاه، فقالوا الرسول ﷺ قولته الشهيرة بأن المشركين لو منحوه كل شيء، حتى لو كان الشمس والقمر، فلن يتخلى عن دعوته إلى الله

---

٢٢٨) البداية والنهاية، ابن كثير،أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير،، دار المعارف، بيروت، ط٣، ١٩٨٠، مج٣، ص٤٢. والسيرة النبوية، ابن هشام (أبو محمد عبد الملك ابن هشام) نشر موقع www.al-eman.com (نداء الإيمان)، مكتبة التراث الإسلامي. المجلد الثاني، باب " عداوة قومه له ومساندة أبي طالب ".

٢٢٩) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

تعالى، وبكى الرسول أمام عمه، ظانا أن عمه، سيتراجع عن نصرته، وهذا ما نفاه عمه، ونادى على الرسول، وطلب منه أن يستمر في دعوته، فلن يخذله أبدًا.

في هذا الموقف عدة أمور:

- إن الرسول ﷺ كان متعايشًا مع قومه، وهم على كفرهم، ورغم قسوتهم عليه، وتعذيبهم له، إلا أنه التزم مبدأ التحاور معهم، فلم يعتزلهم أو يتجنبهم، بل يدعوهم، ويصبر عليهم.

- نرى قيمة الوفاء والحماية في سلوك أبي طالب عم الرسول ﷺ، حيث ظلَّ مناصرًا لابن أخيه، بينما كان عم الرسول "أبو لهب" ويدعى "عبد العزى بن عبد المطلب"، مناصرًا العداء للرسول وفيه نزلت سورة المسد، قال الله تعالى: { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) }[٢٣٠]. وقد قد كان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغضة له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه، وقد كانت زوجته "أم جميل" عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده [٢٣١].

- إن هذا الموقف يظهر صدق دعوة رسول الله ﷺ، وثباته، فرغم كل العذاب الذي رآه، وتعرض له، وأيضًا تعرض لكل الإغراءات من مال وجاه ومنصب، فإنه ظلَّ صامدًا، ثابتًا، ولما رأى ضعف أبي طالب أمام إلحاح قريش، لم يتراجع بل ازداد ثباتًا على ثبات، وعزم السير في الطريق مهما كلّف الأمر.

- ظل أبو طالب عم الرسول ﷺ على نصرته لابن أخيه، حتى وفاته في نفس العام الذي توفيت فيه السيدة خديجة زوجة رسول الله ﷺ الأولى، وسمي هذا العام عام الحزن.

- في الموقف إشارة إلى أن الرسول ﷺ كان شخصية منفتحة على جميع أطياف المجتمع المكي، فالأساس في الإسلام الدعوة لجميع الناس، وقد استعان

---

٢٣٠) سورة المسد، الآيات (١- ٥)

٢٣١) تفسير ابن كثير، ج٤، ص٦٧٦، ٦٧٧.

الرسول ﷺ في مناصرته بالعديد من أهل الشرك، ذوي العقول والشهامة والنخوة، وعمه أبي طالب نموذجًا لذلك، وأيضًا المطعم بن عدي الذي ناصر الرسول ﷺ عندما عاد من الطائف بعدما رفض أهل الطائف دعوته، حيث دعا أبناءه وقومه، فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرتُ (ناصرتُ) محمدًا، فدخل الرسول مكة وطاف بالبيت، وانصرف إلى بيته، والمطعم بن عدي وبنوه محدقون به بالسلاح[٢٣٢]، وفي هذا إشارة أيضًا إلى وجود الكثيرين من العقلاء في أهل الشرك، وأنهم لم يشاركوا في إيذاء محمد ﷺ، وإن ظلوا على شركهم، وكان الرسول يحترمهم، ويقدرهم، وعندما أسلموا أفادوا الدعوة بحنكتهم وخبراتهم المختلفة مثل: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد وغيرهما.

▪ الموقف الثاني : الحوار مع كفّار مكة

حيث اجتمع عددٌ من وجهاء مشركي مكة، وقرروا أن يتحاوروا مع الرسول محمد فيما يقول، فذهبوا إليه وتحدثوا معه، بعرض دنيوي مغرٍ، ظنا أن الرسول يمكن أن يتم احتواؤه بهذه الطريقة. "فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، وما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد مُلكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك – وكان يسمون التابع من الجن الرئي – فربما كان ذلك؛ بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك ؟ "

٢٣٢) انظر : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري، (مراجعة وتخريج إبراهمي محمد علي)، دار الجيل ببيروت ودار عمار بعمان،ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص٨٠. وانظر أيضا : زاد المعاد، ج٢، ص٧٢

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيراً نذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم (٢٣٣).

لقد استهل الكفار حديثهم مع الرسول محمد ﷺ باستعراض أبرز الآثار التي أحدثتها دعوة الرسول في أهل مكة وهي: السخرية من عبادتهم، شتم معتقداتهم، تفريق جماعتهم، والسخرية من عقولهم، وأنه لا أحد من العرب فعل ذلك من قبل. ثم عرضوا عليه عرضًا دنيويًا يتضمن مغريات عديدة:

أولها: لو أراد المال والثراء، فهم سيجمعون له من أموالهم، ما يجعله أغنى أغنياء مكة.

ثانيها: لو أراد الشرف (الجاه) فهم سيسلمون له بذلك، ويجعلونه سيدًا عليهم.

وثالثها: لو أراد المُلك، فهم قبلوا أن يكون ملكًا عليهم.

ورابعها: لو كان ما يأتيه من وحي (من الله تعالى) سِحرًا وجنًا، فهم على استعداد لإنفاق المال حتى يتم علاجه.

وقد جاء الرد من الرسول بسيطًا: إما أن تقبلوا ما جاءه من الله من البشرى (الجنة) والنذير (النار)، أو يصبر حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين.

الموقف السابق يدل على إفلاس الكفار مع الرسول ﷺ، والإفلاس يعني خواءً فكريًا وروحيًا وعقديًا، لا يمكنهم مواجهة الرسول به، خاصة أن أعداد المسلمين في تزايد، وأن ما ينادي به محمد من أمر مقبول عقليًا، فإن الأصنام لا نفع منها، وأن المنظومة الأخلاقية في الجاهلية فاسدة للنفس والعقل، وفوق كل ذلك، فإن معجزة القرآن تلجم العقول ببلاغتها، وقوة أثرها الروحي والنفسي.

---

٢٣٣) السيرة النبوية لابن هشام ، المجلد الثاني، فصل : " زعماء قريش تفاوض الرسول صلى الله عليه وسلم)، وانظر : البداية والنهاية، الجزء الثالث، فصل " اعتراض المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والموقف دال أيضًا على طبيعة تعامل الكفار مع الرسول، فهم يتعاملون بمنظور الدنيا: الشهرة، المال، الملك، وهو ﷺ في شفقة عليهم، وعلى عقولهم التي ترتع في جهالة وكفر.

في الحوار السابق، لم يكن الرسول يرد بحجج وأدلة وبراهين فقد ساقها في حواراته السابقة، وما أكثرها في الآيات القرآنية المكية، وإنما كان بالرد أنه نبي مرسل، مهمته الإبلاغ، ولا يملك غير ذلك، ويختم كلامه: "وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"، وهذا دليل على صبره واحتسابه الأمر كله لله تعالى.

ولنتابع بقية الحوار بين الكفار والرسول ﷺ:

"قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشًا منا؛ فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال، التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجر فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيما يبعث لنا منهم: قصي بن كلاب، فإنه كان شيخًا صدوقًا، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل؟ فإن فعلت ما سألناك وصدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث لنا ملكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لنا جنانًا وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة، ويغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق وتلتمس المعايش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنَّا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال ﷺ: ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك [٢٣٤].

لما يأس الكفار من إجابة الرسول إلى طلبهم بأن يترك الدعوة ويقبل الدنيا، راحوا يطالبون بما هو فوق طاقة الرسول ﷺ وهي طلبات تشمل أن يجري الله تعالى أنهارًا في بلادهم القاحلة، وأن يحيي أحد زعمائهم القدامى وهو قصي بن كلاب ليسألوه، أو يجعل لهم حدائق وقصورًا من ذهب وفضة وغير ذلك، وهي طلبات دالة على منظورهم الدنيوي القاصر، الذي يقيس الأمور بالمادة والشهوة، دون نظر قلبي، وتأمل في خلق السماء والأرض. لقد حوّلوا الأمر إلى مراء، ولأن الرسول ﷺ أدرك ذلك، فإنه اكتفى بتكرار ردوده، وأنه لا يملك من الله شيئًا، فالأمر كله لله، وما هو إلا نبي مرسل، مأمور بالإبلاغ؛ تبشيرًا بالجنة، وإنذارًا من النار.

فكون الرسول يكرر ردوده بشكل متشابه تقريبًا: "فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" فيوكل الأمر كله لله، وأنه ليس مبعوثًا بإجابة طلبات دنيوية لهؤلاء المشركين أو لغيرهم، فهذا توكيد على عظم الدعوة، وسمو الرسالة، والرسول هنا يقيم الإبلاغ في حده الأدنى، موضحًا مهمته، وأن الله يحكم بينه وبينهم، فلا مجال لغير ذلك، وأن العقائد التي دعاهم إليها الرسول، تشهد العقول بصحتها، دون احتياج لبرهنة وأدلة.

لقد ادّعى البعض - من المستشرقين وخصوم الإسلام - أن العرب قبلوا بدعوة الإسلام، ودخلوا في دين الله أفواجًا، لأنهم كانوا في طور نهوض أدبي

٢٣٤) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

واجتماعي، تجعلهم يقبلون هذه الدعوة بسهولة [٢٣٥]، ولكن ما فعله كفار مكة من صد وتعذيب وسخرية واستهزاء بالرسول وصحبه، يرد بوضوح على هذه الادعاءات ويدل على فسادها، ذلك أن المؤمنين بالدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، بعد ثلاث عشرة سنة أمضاها النبي بين ظهرانيهم وكانت المحصلة: "أفراد من أهل قرابته، وآخرين من ذوي العقول الممتازة، الذين لا يخلو من أمثالهم أي مجتمع، مهما كان متغلغلا في الجاهلية، وقد كانوا من القلة بحيث خضعوا لجميع ضروب الاضطهادات فلمَّا لم يجدوا مخرجًا عمدوا إلى المهاجرة إلى الحبشة" [٢٣٦].

- **الموقف الثالث :**

الرسول ﷺ يرد بآيات القرآن الكريم

وهي ليست موقفًا واحدًا، بل مواقف متعددة، واجه الرسول الكفار بآيات القرآن الكريم، وهي كمال البلاغة في الرد والإقناع والبرهان.

فقد مشى أُبيّ بن خلف إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظام رميم، وهو يفتّه ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: نعم يميتك الله تعالى، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار" وفي رواية أخرى: إن العاص بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء ففتّه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي هذه الله بعد ما أرى؟ قال رسول الله: نعم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك جهنم" [٢٣٧].

وقد أنزل الله تعالى فيهما : { **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)** } [٢٣٨].

---

٢٣٥) انظر : السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، م س، ص ١٢٨، ١٢٩.
٢٣٦) المرجع السابق، ص١٢٩.
٢٣٧) تفسير ابن كثير، ج٣، ص٦٥٨، وانظر أيضا : السيرة النبوية، ابن هشام، المجلد الثاني، موقف أبي ابن خلف مع الرسول صلى الله عليه وسلم.
٢٣٨) سورة يس، الآيات (٧٨ – ٨٠)

الموقفان السابقان بين الرسول ﷺ وبين أُبي بن خلف والعاص بن وائل يبرهنان على طبيعة الكفر الذي كان عليه مشركو مكة، وليست المسألة كما تقدّم في حوارهم مع الرسول، وطلباتهم الدنيوية، إنهم ينكرون أسس الإيمان بالله تعالى من بعث وحساب وجنة ونار، وهؤلاء لا ينفع معهم أي إقناع مادي، لأن قلوبهم مغشاة بالكفر، وعيونهم مظلمة عن الحق، لذا جاءت إجابة الرسول عكس ما يتوقع القائل فيحاوره بالعقل، ولكن لا حوار يصلح مع هذه القلوب المقفلة، وإنما ثبات اليقين، ورسوخ الإيمان، وقد ظهرا في رد الرسول بثقة، حيث أكد للاثنين أن الله سيميتهما ثم يحييهما ثم يدخلهما النار، وصدق الرسول ﷺ، فقد ماتا كلاهما دون إيمان، وإن أمن من خرج من أصلابهم، مثل إيمان عمرو بن العاص بن وائل رضي الله عنه

وقد نزلت الآية الكريمة المذكورة، تقدم الرد بإقناع، فإن الله يحيي العظام وهي نخرة بالية، فهو خلقها في المرة الأولى، وسيعيد تكوينها ثانية، وهذا أهون عليه ثم قدّمت الآية البرهان: فإن الله خالق الشجر الأخضر الذي يجف ثم يصبح حطبًا تُشعَل به النار، فالذي "أخرج هذه النار من من هذا الشجر، قادر على أن يبعثه" [٢٣٩]، وبالطبع فإن البرهان المقدم من الآية بسيط للعقل، وحينما ردَّ الرسول بثقة ويقين على الكافرينِ، فإن القرآن تكفل بالرد العقلاني، ليوضح أن الأساس في الأمر الإيمان بالله تعالى: خالقنا في أولنا، ومحيينا يوم البعث.

– ويذكر أيضًا: أن قريشًا اجتمعت يومًا فقالوا: انظروا أعلَمَكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه، ولننظر ماذا يرد عليه. فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد. فغدا "عتبة بن ربيعة العبشمي" إلى الرسول، وعرض عليه مثلما عرض عليه كفار مكة، فقال ﷺ: لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني، فقرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصّلت: { حم(١) تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ

٢٣٩) تفسير ابن كثير، ج٣، ص٦٦٠، عن قتادة.

حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) }[٢٤٠] إلى قوله تعالى { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ }[٢٤١] فأمسك عتبة بفيه (بفم الرسول)، وناشده الرحم (صلة القرابة بينهما) أن يكف عن ذلك، فلما رجع عتبة سألوه عن ذلك، فقال: والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر، يا معشر قريش، أطيعوني فاجعلوها بي، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعتُ نبأ، فإن تصبه العرب (تضره وتحاربه) فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزُّه عزُّكم، فقالوا: لقد سحرك محمد. فقال: هذا رأيي[٢٤٢] وفي رواية أخر: يقول عتبة لقومه: "فأمسكت بفيه (فم الرسول) وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب. وفي رواية ثالثة أن الرسول ﷺ انتهى في تلاوته إلى السجدة {واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون}، فسجد عتبة، ثم قال ﷺ: "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك" [٢٤٣].

ما أروع هذا الموقف ! إنه موقف اليقين الكامل، أمام رجل من المشركين خبير في السحر والكهانة والشعر، وقد سمع القرآن فبهر بإعجازه البلاغي والعقلي، وهو خبير في الشعر والفنون اللغوية العربية. وقد شهد هذا الرجل المشرك للنبي محمد بشهادات عدة: إنه صادق لا يكذب أبدًا، وليس بشاعر ولا كاهن ولا ساحر. ويقينه بقوة القرآن وتأثيره العظيم في النفس، بدليل سجوده عندما وصل الرسول إلى السجدة، ثم علمه أن دعوة محمد ناجحة لا محالة، ذلك أن اليقين الكبير، والإيمان الراسخ الذي رآه عتبة على الرسول، وقوة الرسالة القرآنية، وروعة بيانها، ومتانة عقيدتها، كافية لغزو القلوب كيفما كانت.

---

٢٤٠) سورة فصلت، الآيات (١-٦).

٢٤١) سورة فصلت، الآية ١٣.

٢٤٢) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، م س، ص٦٣. والقصة بطولها في السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، باب "زعماء قريش تفاوض الرسول ﷺ".

٢٤٣) ابن كثير، ج٤، ص١٠٧، وفيه القصة التي ذكرها ابن هشام أيضا، والآية من سورة فصلت، رقم ٣٧.

وقد جاء رد النبي ﷺ بالآيات القرآنية لأن الرجل مثل عتبة (أبا الوليد) لا ينفع معه إلا قوة القرآن، وهذا ما حدث بالفعل.

وبمناسبة الشعر، فإن الرسول ﷺ لم يكن يقول الشعر ولا يتمثل به، مصداقا للآية الكريمة: { **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ** }[٢٤٤]، حتى لا يُقال عنه إنه مؤلف آيات القرآن الكريم ببلاغته الشعرية، والقرآن ليس بشعر، وإنما هو شكل أدبي معجز في نظمه وتعاليمه وما حواه، وما زال العلماء والبلغاء منكبين على درسه حتى يومنا، وفي كل يوم هنا الجديد المعجز الذي تكشفه آيات القرآن.

وهناك شهادة من أحد صناديد الكفار، وهو أبو جهل "عمرو بن هشام" حيث سأله ابن أخته "المسور بن مخرمة": يا خال، هل كنتم تتهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول مقالته؟ فقال: والله يا ابن أختي، لقد كان محمد وهو شاب يدعى فينا الأمين، فلما وخطه الشيب لم يكن ليكذب. قلت: يا خال، فلم لا تتبعونه؟ فقال: يا ابن أختي، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرفَ؛ فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، فلما تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي، فمتى نأتيهم بهذه"[٢٤٥].

توضح هذه الشهادة بُعدًا آخر في صد كفار مكة دعوة الرسول ﷺ وهو العصبية القبلية، فقد حقدت العشائر المقيمة في مكة المكرمة، على بني هاشم، عشيرة النبي ﷺ المكانة العالية التي نالوها قبلاً، فهم أهل الطعام والسقيا، والحرب والشجاعة، فكيف يخرجون نبيًا مثل بني هاشم؟ إن العصبية القبلية كانت تغشى القلوب، وتسيطر على النفوس، وتحيل الأمر من حوار عقلاني إيماني إلى عصبية بغيضة، تعمي الأفئدة وتظلم العقول.

من ناحية أخرى، فقد شهد أبو جهل لمحمد بالصدق والأمانة، وهذه شهادة عظيمة، فلا يستقيم نبي كذاب وهي نفس شهادة عتبة بن ربيعة.

---

٢٤٤) سورة يس، الآية (٦٩).

٢٤٥) جلاء الإفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن قيم الجوزية، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ص٩٤.

- **الموقف الرابع: شهادة هرقل في شخص الرسول ﷺ**

هذه شهادة لهرقل قيصر الروم، وهي الدولة الأكبر في عهد الرسول ﷺ، حيث أرسل الرسول برسالة إلى هرقل، يدعوه فيها إلى الإسلام، وقد حدث حوار بين هرقل ملك الروم، وأبي سفيان بن حرب، زعيم مشركي قريش، ونظرا لدقة وعمق ما قيل في هذا الموقف، فمن المهم ذكر النص -رغم طوله- حسبما جاء في صحيح البخاري حتى يتمعن القارئ في دلالات شهادة هرقل مع أبي سفيان بن حرب، وهذا ملك الروم وقيصرهم، وذاك زعيم قريش:

– عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، اَخْبَرَهُ أن أبا سفيان بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ ــ وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ ــ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سفيان وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالَ أبو سفيان فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا. فَقَالَ ادْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ. ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ قُلْ لَهُمْ أَنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللَّهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ".

فقد كان هرقل، قيصر دولة الروم، موجودًا في مدينة إيلياء في بلاد الشام، فعرف بوجود قافلة تجارية من قبيلة قريش في مكة المكرمة، فدعا هرقل أفراد هذه القافلة من العرب، ثم أراد أن يتعرف على الأقرب نسبًا من النبي محمد ﷺ، فتقدم إليه أبو سفيان بن حرب، وهو من وجهاء قريش، وكان لا يزال على الكفر، ويناصب الرسول محمدا العداء، وكان الرسول وقتها في المدينة المنورة، وهنا طلب هرقل من الترجمان أن يجعل باقي العرب المرافقين لأبي سفيان خلف زعيمهم، ليعترضوا عليه إذا كذب في شيء، وهذا دليل على رغبة الرجل في الاستيثاق من كلام أبي سفيان، ورده من قبل قومه إذا أخطأ، والرواية هنا على لسان أبي سفيان، الذي منعه الحياء من قومه، ومن المجلس أن يغير أقواله، فالتزم الصدق في كل ما قيل.

نعلم أن هرقل كان على ديانة النصرانية، وهو ذو علم وحكمة وبصيرة، وهذا ما سيتضح في الحوار المكثف بينه وبين أبي سفيان، يقول أبو سفيان:

-" ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَن قَالَ كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ قُلْتُ هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ قُلْتُ لاَ. قَالَ فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ لاَ. قَالَ فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَقُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ قُلْتُ بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَأَنْ يَدْخُلَ فِيهِ قُلْتُ لاَ. قَالَ فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ قُلْتُ لاَ. قَالَ فَهَلْ يَغْدِرُ قُلْتُ لاَ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا. قَالَ وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ. قَالَ فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ قُلْتُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. قَالَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ قُلْتُ يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ".

الملاحظ أن أسئلة هرقل، كانت دقيقة للغاية، فقد سأل عن نسب الرسول ومن أعلم بالأنساب مثل أبي سفيان! فأخبره أبو سفيان أنه ذو نسب عظيم، وهو نسب يمتد إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام[٢٤٦]، وأنه رغم ذلك، فليس من آباء الرسول ولا أجداده من ملك، وأن من يؤمن بدعوته هم الضعفاء من الناس، ومن آمن به لا يتراجع عن إيمانه، وهم في ازدياد رغم الحرب السجال بين الكفار والمسلمين. ثم شهد أبو سفيان أن دعوة الرسول تنادي بتوحيد الله، ثم بالصلاة وحسن الخلق والعفة في القول والسلوك.

لقد قدّم أبو سفيان صورة شاملة عن الرسول ﷺ، وهي صورة صادقة، توضح أن أبا سفيان وهو مشرك، كان يعلم جيدًا طبيعة رسالة محمد، وما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، وصدقه وأمانته، وأن الحرب السجال التي كانت بين كفار مكة والنبي في المدينة هي حرب على غير أساس عقلي أو أخلاقي أو ديني، فقد

---

٢٤٦) راجع : زاد المعاد، ج١، ص٢١ ويستشهد بموقف أبي سفيان مع هرقل المذكور أعلاه. وانظر أيضا : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ص٩، والسيرة النبوية لابن هشام، باب النسب الذكي للرسول.

سلّم زعيم قريش بعظم رسالة محمد، وعظم نسبه، وأن دعوته في ازدياد، وأن من يؤمن بالإسلام لا يتخلى عنه مهما حدث له، وهذا يعني فيما يعني: ثبات موقف الرسول الحركي، وثبات أتباعه، وتكاثرهم، وأن دعوته تغزو القلوب بيسر، فإذا غزت القلوب لا تغادرها، ورغم أن الإسلام ينادي أن يترك الناس ديانة آبائهم وهي الشرك والكفر بالله تعالى، إلا أن الإسلام يأمر بالصلة – على حد قول أبي سفيان – أي صلة الرحم، وهذا دليل على أن القضية ليست مقاطعة الآباء، وإنما اتخاذ موقف من العقائد التي كانوا يؤمنون بها، وهو موقف يريد الصلاح للناس، وليس قطيعة الرحم. ولنكمل ونرى:

– " فَقَالَ (هرقل) لِلتَّرْجُمَانِ قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ. فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ انَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ".

فقد علل هرقل في تعقيبه على كلام أبي سفيان، بتعليل جمع بُعدين: البُعد العقلي، والبُعد الديني المستقى من كتب أهل الكتاب السابقين، ثم قدَّم بشارةً.

أما البُعد العقلي:

- فإن الرسول لم يكن كذابًّا، واشتهر بالصدق، وهذا ما يجعله ذو مصداقية عالية عند الناس، وفي نفس الأمر، فإن الصادق عاقل ذو إيمان، فلا يكذب على الله، ويصدق الناس.

- لم يحدث أن قام أحد أبناء مكة أو قريش بادّعاء النبوة، حتى يقلّده الرسول فيما يقول، فهو أول من دعا بالنبوة في قومه.

- ليس لآباء محمد ﷺ ملك أو سلطان، حتى لا يظن أنه أراد أن يطالب بملك آبائه، فاتخذ النبوة وسيلة لذلك.

أما البعد الديني وهو مستقى من اطلاع هرقل على الكتب السماوية السابقة فيبدو في تأكيده على:

- أن كل رسول مبعوث في قومه فهو ذو نسب طيب، معروف الأصل، وتلك حكمة عظيمة، حتى لا يكون دخيلاً أو مدعيًّا يطلب الشهرة والصيت من دعواه.

- أن الرسول محمد يتبعه ضعفاء الناس، وهذه سُنَّة الأنبياء في الأرض، يؤمن بهم الضعفاء وأراذل الناس.

- وأن من يؤمن لا يرتد بعد إيمانه، ذلك أن للإيمان حلاوة لا يعرفها إلى من ذاقها، وولجت قلبه، فلا يرتد عنها.

- وأن من أخلاق الرسول الأمانة وحفظ العهد، فلا يعرف الغدر والخيانة وهي من أخلاق الرُسل، أمَّا أخلاق الملوك وطُلاَّب السلطة والمنصب فتحكمهم اعتبارات المصلحة والسياسة لا الأخلاق والهداية.

- أن ما يدعو إليه الرسول ﷺ هي دعاوى الرسل والأنبياء جميعًا، فهم من مشكاة واحدة، يعرفها من قرأ الديانات السماوية، وطالع كتبها، فالتوحيد والأخلاق الحسنة وصلة الرحم لم يختلف عليه أحد من المبعوثين من عند الله.

كانت البشارة التي قدّمها هرقل:

– أن محمدًا سيمتد ملكه حتى موطن قدميه هاتين، وهو ما تحقق بالفعل، سواء كان يقصد بقدميه أرض إيلياء (بيت المقدس) بفلسطين[٢٤٧]، أو مُلكه هو، وهذا ما تمَّ حيث سيطر المسلمون على معظم بلدان دولة الروم في الشام وشمال أفريقية، ثم فتحوا عاصمة ملكهم الكبرى مدينة القسطنينية على يد محمد الفاتح.

– "ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ. سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ، اَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الاَرِيسِيِّينَ و {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} قَالَ أبو سفيان فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ. فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ [٢٤٨].

فحين قرأ هرقل كتاب رسول الله ﷺ كانت المعلومات لديه مكتملة، من خلال حواره مع أبي سفيان، ونلاحظ أن كتاب الرسول إلى هرقل كان يتضمن القيم العليا المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب من النصارى وهي:عبادة الله الواحد الأحد، دون أن يعظم الناس بعضهم البعض. وقد اقتنع هرقل بأن محمدًا نبيًا، ولكنه خشي من قومه، وفضَّل أن يظل في موضعه، وهذا ما أشار إليه الرسول في كتابه، فهو سيتحمل إثم قومه والشعوب التي يحكمها، وهكذا الملوك، تكون حساباتهم دنيوية، ويخضعون لنفوذ من حولهم.

---

٢٤٧) راجع : معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، دار بيروت، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م. رقم ١٦٧. وفيه إشارة إلى أن إيلياء اسم لامرأة بنت بيت المقدس، وقد ورد في الحديث الشريف : وروي عن كعب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: " لا تسموا بيت المقدس إيلياء، ولكن سموه باسمه فإن إيلياء امرأة بَنَت المدينة"

٢٤٨) صحيح البخاري، ج١، كتاب بدء الوحي، رقم (٧)، ص١٦- ١٨.

على الجانب الآخر، فقد أدرك أبو سفيان وهو راجح العقل، أن ملك ابن أبي كبشة (إشارة إلى الرسول محمد) قد وصل شأنًا عظيمًا، ولكن الهداية من الله، ولم يزل الأمر في قلب أبي سفيان حتى أسلم عند فتح مكة [٢٤٩] مقتنعًا بعظم رسالة الإسلام التي حملها نبي الإسلام.

وهكذا كانت رؤى بعض المشركين وأحد الملوك من أهل الكتاب حول دعوة الرسول ﷺ وشخصه الكريم.

---

٢٤٩) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ص ٢٥٨.

المبحث الثاني

الحوار مع البسطاء وحديثي الإسلام

يتألف أي مجتمع من أناس مختلفي المستويات المعرفية والعقلية، ومن المهم أن يتحاور أصحاب الرسالات والدعوات مع مختلف شرائح المجتمع، وهذا ما فعله الرسول ﷺ، حيث كان يجالس الكبير والصغير، المرأة والطفل والشيخ، ويتحاور مع كل هؤلاء. وتعد شريحة البسطاء من الناس من أهم الشرائح التي حاورها الرسول ﷺ، نظرًا لأنها تمثِّل الغالبية من الناس في أي مجتمع، خاصة المجتمع في الجزيرة العربية، وهو مجتمع بدوي قبلي. فقد أولى الرسول عنايته البالغة بهذه الفئة، وكان حواره مع أفرادها يتناول القضايا الأساسية في الإسلام، خاصة مسائل التوحيد، فهي الأساس في دعوة الرسول ﷺ وهي القضية الكبرى في مناقشات الرسول، منذ أولى أيام بعثته في مكة المكرمة ثم في هجرته إلى المدينة المنورة، حيث لم ينقطع حوار الدعوة، مثلما لم ينقطع حوار التوحيد، ونبذ الشرك، وتطهير القلوب من الوثنية والشرك، ولن تنفصل تعاليم الإسلام الأساسية عن حوار العقيدة، لذا نجد الكثير من الأحاديث الشريفة ربطت ما بين الإيمان والعمل بأركان الإسلام، واجتناب نواهيه.

وقد دارت حوارات عديدة بين الرسول ﷺ والبسطاء حول هذه القضية، ونرى في هذا الباب حوار الرسول معهم في أمكنة وأزمنة متعددة، وبكيفيات مختلفة، يمكن أن نعرض بعضًا منها:

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه.. كَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ قَالَ "صَدَقَ". قَالَ فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ قَالَ "اللَّهُ". قَالَ فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ قَالَ "اللَّهُ". قَالَ فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ. قَالَ "اللَّهُ".

قَالَ فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ آللَّهُ أَرْسَلَكَ قَالَ "نَعَمْ". قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا. قَالَ "صَدَقَ". قَالَ فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ "نَعَمْ". قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا. قَالَ "صَدَقَ". قَالَ فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ "نَعَمْ". قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا. قَالَ "صَدَقَ". قَالَ فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ "نَعَمْ". قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ "صَدَقَ". قَالَ ثُمَّ وَلَّى. قَالَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ" (٢٥٠).

إننا أمام مشهد حواري جذَّاب، فهذا أحد الأعراب، قدم من قبيلة في البادية، وراح يحاور الرسول ﷺ، والرسول يجيب، ونرى أن الحوار بدأ بالقضايا العقدية: خالق السماء والأرض والجبال، ثم فرائض الإسلام، وصولاً إلى قرار البدوي أن يلتزم بهذه الفرائض، مثلما التزم بالعقيدة، وقد صدَّق الرسول على ما قاله البدوي، وأكد ﷺ أنه سيفلح إن كان صادقًا، والمقصود بالفلاح: الفوز برضوان الله والجنة، وهو تعبير عام، يشمل السعادة في الدنيا والآخرة.

في الحديث السابق أمور عدة:

إن الأعرابي جاء ليستوثق مما قاله الرجل الذي بعثه الرسول محمد ﷺ، فقد كان الرسول يبعث إلى كل قبيلة أو قرية أو مدينة من يعلمها أمور دينها، فهذه أسئلة دالة على علمه المسبق بحقائق الإسلام وأركانه، وقد كان الحوار للاستيثاق مما نقله مندوب الرسول محمد إلى هذه قبيلة البدوي، لذا تكررت عبارة "زَعَمَ رَسُولُكَ".

كما وردت عبارات البدوي بصيغة استفهامية، دون ذكر أداة استفهام، ولكن الخطاب بصيغة السؤال وهي صيغة تعني الأداة (هل أو الهمزة)، وقد حذفت لأنها معلومة للسامع. الجديد في الجواب، أن الرسول لم يجب –على أغلب الأسئلة–

٢٥٠) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١١١).

بلفظة "نعم"، وإنما بالفعل الماضي "صدق"، وهو يشمل الإيجاب، والتصديق، والتأكيد، بينما جاءت إجابته بنعم على سؤالين فقط.

كما نلاحظ أن ما ذكره مبعوث رسول الله إلى القبيلة يتضمن المعلوم من الإسلام بالضرورة، وهي حقائق العقيدة، وأن الكون له خالق عظيم، واحد أحد، ثم ذكر أركان الإسلام: الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج. وهذا دليل على أن الرسول كان يعرض العقيدة والعبادة في آن، ومن التزم بهذه الأركان، وصحّت عقيدته، فهو سينال الفلاح في الدنيا (سعادة النفس وهناءها)، وفي الآخرة رضوان الله تعالى، وجناته.

وقد صدَّق الرسول على تعقيب الأعرابي، بأن لا يزيد ولا ينقص، في إشارة إلى الالتزام، وقد جاء لفظ الرسول "إن صدق"، إيضاحًا بأن مفهوم الصدق يشمل الالتزام بالنية والقول والفعل.

- عَنْ أَبِي سُهَيْلٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ، يَقُولُ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ وَلاَ نَفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ". فَقَالَ هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهُنَّ قَالَ "لاَ. إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ". فَقَالَ هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهُ فَقَالَ "لاَ. إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ". وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ فَقَالَ هَلْ عَلَىَّ غَيْرُهَا قَالَ "لاَ. إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ" قَالَ فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَاللَّهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ"[٢٥١].

يفرّق هذا الحديث بين الفرض والتطوع، والتطوّع يعني أداء النافلة والسنن وأعمال الخير التي يمكن أن يقوم بها المسلم. ونلحظ أن الرجل كان يسأل عن الإسلام، أي الأعمال التي تُظهِر عبادات المسلم، وتميزه بالإسلام دينًا ومنهجًا وسلوكًا، وما نلاحظ التدرج في الفرائض: خمس صلوات في اليوم والليلة، وصيام رمضان، والزكاة، ولم يذكر الرسول الشهادة، لأن الواضح من سياق الحديث أن

---

٢٥١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٠٩).

الرجل مسلم، وربما يكون حديث عهد بالإسلام، أو بسيط الفهم ومحدود الإدراك، وهذا يستوجب خطابًا: بسيطًا، محدد الكلمات. كما لم يشر الرسول إلى الحج وهو ركن خامس في أركان الإسلام، وربما يكون الحديث ذُكِرَ في وقت لم يفرض الحج فيه على المسلمين بعد، أو لأن الحج ركن معروف شهير، فأراد الرسول التركيز على العبادات الأساسية التي تهم المسلم في اليوم والشهر والسنة، وتشمل حياة المسلم.

الجديد في هذا الحديث أن الرسول كان يكرر عبارة "إلا أن تطوّع" في إشارة إلى أهمية التفرقة بين الفرض والنافلة، فربما يختلط الأمر على رجل حديث المستجد في الدين أو بسيط الفهم فيخلط ما بين النافلة والفرض فيما يشاهده من عبادات المسلمين.

كما ختم الرسول ﷺ الحديث بعبارة "أفلح إن صدق"، وهي تحمل نفس الدلالة التي ذكرت في الحديث الأول وهي دلالة إخلاص النية لله تعالى والالتزام بالعبادة.

– ونفس الأمر نجده في هذا الموقف: فيما يرويه الصحابي الجليل: أنس بن مالك رضي الله عنه: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكىء بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكىء. فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي ﷺ: قد أجبتك. فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك. فقال: سل عما بدا لك. فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم. قال أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: اللهم نعم. فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة، أخو بني سعد بن بكر" [٢٥٢].

---

٢٥٢) صحيح البخاري، ج١، كتاب العلم، ص ٣٩، رقم ٦٣.

الحديث السابق، يمثل زاوية أخرى لما تقدّم من أحاديث، مع تعميق محاور إيمانية أخرى. ولكن نلحظ حجم الصراحة التي كان عليها الرجل القادم على ناقته في المسجد، وهي صراحة مبدئية، بدأت من الاستيثاق من شخص الرسول، بالسؤال عن "محمد" الإنسان، ثم التأكد من أنه ابن عبد المطلب، جد الرسول الذي حظي بمكانة كبيرة بين الناس لمواقفه العديدة الشهيرة؛ حفز زمزم، ومواجهة حملة أبرهة الأشرم وغيرهما. ومن ثم بدأ بوضع قاعدة لحواره: "إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك"، أي سيسأله بصراحة ويرجو ألا يغضب الرسول أو يتضايق من تساؤلاته. وقد أفسح الرسول المجال أمامه، فتساءل مركِّزًا على: بعث النبي إلى جميع الناس وهو مفهوم عالمية الدعوة الإسلامية، دون جنس أو عرق أو وطن أو زمان. وعن الصلوات المفروضة، وعن الصوم، والصدقة المفروضة (الزكاة). ثم يختم مقولته أنه مؤمن بما جاء به الرسول، وسيخبر قومه، موضحًا أصل نسبه ونسب قبيلته.

الموقف دال على اتساع صدر الرسول ﷺ، وأنه يهتم في ذلك بالجميع، مهما تكررت الأسئلة، وتعدد السائلون، ونجد أن جواب الرسول بصيغة توكيدية "اللهم نعم" وهي صيغة بها لفظ الدعاء "اللهم" ثم الإيجاب "نعم"، فواضح أن الرجل موقن بالله تعالى، وأنما أراد التوثيق. وسيتولى إبلاغ قومه.

– عن أَبي أَيُّوبَ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا، عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي سَفَرٍ . فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ أَوْ بِزِمَامِهَا ثُمَّ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ –أَوْ يَا مُحَمَّدُ – أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ . قَالَ فَكَفَّ ﷺ ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ " لَقَدْ وُفِّقَ – أَوْ لَقَدْ هُدِيَ – قَالَ كَيْفَ قُلْتَ". قَالَ فَأَعَادَ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "تَعْبُدُ اللَّهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دعِ النَّاقَةَ" [٢٥٣].

هنا نجد مشهدًا حواريًا، حدث بشكل مفاجئ، ضمن الحوار الموصول بين الرسول ومحاوريه. فالرسول على راحلته سائر، ويوقفه رجل، ويطلب منه أن

٢٥٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١١٣).

يخبره عما يقربه من الجنة ويبعده عن النار. إنه سؤال بسيط، ولكنه الأساس في الدعوة الإسلامية كلها، إنه يسأل عن طريق الخير والجنة. كان الموقف عفويًا، ولكن الرسول لم يطلب من الرجل أن ينتظر حتى يترجل من فوق الناقة، أو يؤجل الجواب إلى حين، وإنما أجابه فور الاستفسار، معلقا لمن حوله "لقد وفق، لقد هدي" ذلك أن استفسار هذا الرجل البسيط يعبر عن جوهر الدين، وروح العبادة؛ ألا وهو سبل الخير والجنة.

واضح من سؤال الرجل أنه مسلم، بسيط، معلوماته في الدين قليلة، وهذا ما جعل الرسول يوجز القول معددا سبل النجاة له: توحيد الله، إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، صلة الرحم. الجديد عما سبق أن التأكيد على صلة الرحم، وتعزيز العلاقة مع الأقارب والأصهار، فلا قطيعة معهم، وإنما حب ومودة وإيثار.

لقد أوقف الرجل الناقة وهو يشد خطامها، ثم طلب الرسول من الرجل أن يدع الناقة بعدما أجابه، والرجل يخاطب الرسول "يا محمد"، وهذا يتكرر في مواضع عدة في هذا الحديث وفي غيره، دون أن ألقاب مسبقة، وهو رسول الله وزعيم المسلمين وقائدهم، والرسول يقبل هذا الخطاب، من أي فرد، وفي أية حال، راكبًا أو قاعدًا أو ماشيًا، إنه مدرسة متحركة.

– عن عبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، قَالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَىِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ " [٢٥٤].

هذا الحديث لم يُذكر في إطار حواري مباشر، أي لم يأتِ جوابًا عن سؤال أو في نقاش مع رجل، ولكنه جاء إخبارًا مباشرًا من الرسول ﷺ إلى مستمعيه، وهذا يستلزم الطبيعة الإخبارية، ولكنه في باطنه أساس مهم في الحوار مع أهل الكتاب، وقد بدأ الحديث بلفظة "من قال..."، وهذا يعني توجيه سام إلى القول، والقول هنا

٢٥٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٤٩).

لا يشمل الترديد باللسان، وإنما إيمان القلب بالمنطوق، وقد شمل الحديث أساس العقيدة الإسلامية: الإيمان بالله وحده وبنبوة محمد ﷺ، ثم نبوة عيسى، وبشريته، وأنه ابن للسيدة مريم العذراء، وضعته بكلمة من الله وروح منه، وهذا جوهر المنظور الإسلامي إلى نبوة عيسى عليه السلام، ثم أن الجنة حق والنار حق.

عزَّز الحديث السابق -زيادة على التوحيد- قاعدتين: الإيمان بنبوة عيسى، وهذا جزء من يقين المسلم بالكتب والديانات السماوية والنبوات السابقة عامة، وديانة عيسى عليه السلام خاصة، في انفتاح واضح على أهل الكتاب، خاصة النصارى منهم. ثم ركز الحديث على الإيمان المطلق (الحق) بالجنة والنار، وهذا أساس ركين في عقيدة المسلم، فالجنة/ أمل المؤمن، والنار/ خوف المؤمن، كلتاهما من الغيبيات، لم نرهما، ولكن اليقين بهما أساس في العقيدة، فهما باب الأمل، وباب الخوف، ومن أيقن بهما، وتمثلهما في قلبه، وسلوكه، كانتا واقعين أمامه، يعمل طمعًا في لذائذ الجنة الأبدية، وخوفًا من سرمدية العذاب في النار.

- عنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُؤَاخَذُ الرَّجُلُ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَ مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا كَانَ عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ [٢٥٥].

كان سؤال الرجل بسيطًا: هل يُحاسب المسلم إذا أسلم على ما قدّم في جاهليته من آثام ومعاص. وقد أجاب الرسول ﷺ أن هذا يتوقف على ما أعطاه العبد المسلم من أعمال صالحة أو طالحة، فإذا كان صالحا، غفر الله حقبة الجاهلية، وقبل ما عمل في الإسلام، لأن الإسلام يجبّ ما قبله، أما إذا كان طالحا في إسلامه، فهو مؤاخذ على أعمال الحقبتين: جاهليته وإسلامه.

وفي نفس هذا السياق، يكون الحديث الآتي:

- عَنْ مَسَرَّةَ بْنِ مَعْبَدٍ، مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ أَبِي الْحَرَامِ مِنْ لَخْمٍ عَنِ الْوَضِينِ، أَنَّ رَجُلًا، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَعِبَادَةِ أَوْثَانٍ فَكُنَّا

٢٥٥) سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن برهام الدارمي السمرقندي كتاب المقدمة، نشر موقع www.al-eman.com (نداء الإيمان)، مكتبة التراث الإسلامي رقم(١)

نَقْتُلُ الْأَوْلَادَ وكَانَتْ عِنْدِي ابْنَةٌ لِي فَلَمَّا أَجَابَتْ وكَانَتْ مَسْرُورَةً بِدُعَائِي إِذَا دَعَوْتُهَا فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَاتَّبَعَتْنِي فَمَرَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُ بِئْرًا مِنَ أَهْلِي غَيْرَ بَعِيدٍ فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَرَدَّيْتُ بِهَا فِي الْبِئْرِ وكَانَ آخِرَ عَهْدِي بِهَا أَنْ تَقُولَ يَا أَبَتَاهُ يَا أَبَتَاهُ فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى وكَفَ دَمْعُ عَيْنَيْهِ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْزَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ كُفَّ فَإِنَّهُ يَسْأَلُ عَمَّا أَهَمَّهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ أَعِدْ عَلَيَّ حَدِيثَكَ فَأَعَادَهُ فَبَكَى حَتَّى وكَفَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ عَلَى لِحْيَتِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَمِلُوا فَاسْتَأْنِفْ عَمَلَكَ [٢٥٦].

هذه لوحة إنسانية عالية الشجن، رجل من المسلمين، يصف حاله في الجاهلية، حين كان يئدون البنات وهن أحياء، وكما ذُكِر في القرآن الكريم **{وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ}**[٢٥٧]، لقد كان لهذا الرجل المسلم ابنة صغيرة، كانت متعلقة بأبيها تعلقًا كبيرًا، إذا دعاها أجابته وهي سارة، وكبرت البنت، والأب يحتفي بها دائمًا، ولكن غلبت عليه الجاهلية، وتقاليدها، حين كانوا يئدون البنات، خوفا من العار إذا أسرت في الحرب، وصارت جارية تباع وتسترق وتستباح للمنتصر. فيناديها الرجل، وتذهب معه بالقرب من أحد الآبار، وهناك يلقيها في البئر، وتسقط البنت وهي تصرخ "يا أبتاه، يا أبتاه". لقد تحجر فؤاده، وهو يلقي فلذة كبده، خاضعًا لعادات فاسدة.

أبكت القصة الرسول ﷺ بكاءً شديدًا، حتى اخضلت لحيته، ولام الصحابة الرجل على إحزانه الرسول، ولكن الرسول يطلب من أن يعيد القصة، لأن الرجل يسأل عن شيء أهمّه (شغل باله وأحزنه)، فيريد أن يفضي بمكنون خاطره إلى الرسول، يعيد الرجل القصة ويتجدد بكاء النبي الشديد، ثم يخبر الرجل أن الله غفر لأهل الإسلام ما عملوا في جاهليتهم، فليستأنف عمله الصالح في إسلامه، مطمئنًا إلى اتساع مغفرة الله تعالى.

٢٥٦) سنن الدارمي، كتاب المقدمة، رقم (٢)
٢٥٧) سورة التكوير، الآيتان (٨، ٩).

جاء ذكر الرجل لقصته من باب السؤال غير المباشر، خوفا أن تكون أفعاله في الجاهلية محسوبة عليه، وأراد أن يخرج مكنون همه إلى الرسول، لعله يجد مخرجًا، وقد بكى الرسول ﷺ مُديناً الفعلة، ونرى كيف كان أهل الجاهلية منزوعي الرحمة، غلاظ النفس.

وهكذا، كانت علاقة الرسول ﷺ مع البسطاء وحديثي الإسلام، علاقة حية، متجددة، تعتمد على اكتساب القلوب، وترسيخ الإيمان، والفوز بقلوب الناس مهما كان مستواهم العقلي، والثقافي، وأيا كانت منابتهم وأصولهم، إنها القلوب التي كان الرسول ﷺ يتطلع إليها دائمًا.

المبحث الثالث

الحـوار حول تقلبات النفس

لا تلبث النفس البشرية على حال واحدة من الإيمان، بل يزيد الإيمان وينقص، وتتبدل أحوال النفس بين الفرح والحزن، والنشاط والكسل، وغير ذلك من مختلف وجوه الحياة. أيضًا هناك الكثير من أحوال حياء الإنسان، وتصرفاته بشكل مضطرب في بعض مواقف الحياة، وهي تصرفات وجدت من الرسول ﷺ اهتمامًا كبيرًا، وتوجيهًا ساميًا، كذلك كان الرسول يتدخل في علاقات الناس الاجتماعية، والمواقف البسيطة التي يمكن أن تجلب السرور أو الضيق.

من أجل هذا، يأتي هذا المبحث محاولاً استكشاف جانبًا من جوانب تغيرات النفس البشرية، وبعض التصرفات الاجتماعية التي تؤثر في وحدة الصف المسلم وكيف عالجها الرسول ﷺ، وهي قضية ليست بالهينة، فقد شغلت النفوس المؤمنة، وكانت مناط أسئلة مباشرة للرسول، ومناط تعليق منه. ويمكن أن يتم تناول هذه القضية في محاور عدة.

أولاً: وساوس النفس المؤمنة:

وهي الوساوس التي تصيب النفس المؤمنة، نحو الله تعالى، ضمن أسئلة متدرجة وهمسات الشيطان. وقد وجدت عناية من الرسول الأعظم ﷺ، وإرشادًا وتوجيهًا ساميًا، ومن خلال استعراض العديد من المواقف الحوارية تتكشف أبعاد القضية، وهي تبدأ بهواجس عامة، يخشى المؤمن أن يذكرها، ولكن بعضهم أشار إليها دون تصريح.

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ . قَالَ "وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ" . قَالُوا نَعَمْ . قَالَ ذَاكَ صَرِيحُ الإيمان (٢٥٨).

– وعَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: عَنِ الْوَسْوَسَةِ قَالَ " تِلْكَ مَحْضُ الإيمان" (٢٥٩).

المقصود بالوسوسة: هواجس النفس الإنسانية، نحو الله تعالى، وكينونته، وكيفيته، ومكانه، وكيفية الخلق، وما قبل الزمن المعلوم، وما كان من عمر الكون، وكيف كان، وكيف سيكون بعد يوم القيامة. إنها وساوس تضرب العقل المؤمن، وتجعله يشطح في أبعاد كثيرة. جاء رد الرسول ﷺ مختلفًا، لقد جعل الوسوسة دليلاً إيجابيًا على الإيمان، لأن النفس المؤمنة إذا أصيبت بالوسوسة، فهذا يعني أولاً وأخيرًا أنها تفكر فيما تؤمن به، وفيما تحب، وكذلك نحن، نفكّر دائمًا فيما نحب، وفيما نألف، ولأن المؤمن يعايش الذات الإلهية العليا في كل لحظة إذا استحضر النية في مختلف شؤون عباداته وحياته، فإنه من المنطقي أن يجنح به العقل.

جاء رد الرسول ﷺ في الحديثين السابقين إيجابيا فهذا: صريح الإيمان أو محض الإيمان. وبذلك انقلبت القضية من منظور سلبي إلى منظور إيجابي، ومن رفض القضية برمتها إلى الاعتراف الضمني بوجودها، ومن ثم الإقرار أن هذا هو الإيمان بعينه، وتلك غاية الدقة في المعالجة المضادة، أي أنه عالج الأمر بالتسليم به، ثم اعتبار ذلك علامة على الصدق والإيمان الصريح، لأن الكافر/ الملحد لن ينشغل ببساطة بوجود الله والتفكير فيه.

كما أن سؤال الناس عن هذه القضية للرسول، دال على حجم الانفتاح والحرية العقلية التي كانتا متاحتين أيام الرسول ﷺ، وتتصل بالسؤال عن كل شيء، حتى ما يعتري القلوب، ويقلقها، وليس كما يحدث الآن في بعض المجتمعات المنغلقة،

---

٢٥٨) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة، رقم ٣٥٧.
٢٥٩) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة، رقم ٣٥٩.

التي تتعامل مع النفس البشرية والقلوب كأنها أحجار لا تتبدل وتظل ثابتة الشكل. فقد استقبل الرسول السؤال القلق، وأجاب عنه بانفتاح، بل وتوقع أن يسأل من قبل البعض، حين تتخذ القضية أبعادا أكثر صراحة، تتعلق بالسؤال نفسه، وطرحه دائمًا.

– عن أَبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا حَتَّى يَقُولَ لَهُ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ " [٢٦٠].

– وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ"[٢٦١].

كلا الحديثين مروي عن أبي هريرة ﷺ، ويبدو أنه كان مصاحبًا للرسول ﷺ أثناء طرح هذا الأمر، وبناء الحديث لم يكن حواريًا: سؤال وجواب كما في الحديثين السابقين على هذين، بل جاء إخبار مباشر من الرسول لمن حوله، وبناء هذين الحديثين حواري: إنه يصف الحوار المفترض/ المتوقع الذي يمكن أن يكون في النفس، وهو إما أن يكون من الشيطان، الذي يوسوس للنفس المؤمنة متدرجا معها من البسيط إلى المركب، ومن خلق الكائنات إلى خلق الله تعالى، وهنا يستعذ المسلم من الشيطان نفسه، ويمتنع عن التفكير في الأمر برمته، وهذا هو الحل النبوي.

في الحديث الثاني، يكون السؤال من الناس أنفسهم، هؤلاء المشغولون بالجدل والمراء والتفكير في غير المفيد، فيختلفوا وتختلف عقولهم ونفوسهم، في قضية إيجاد الكائنات وخلقها، ومن ثم خلق رب هذه الكائنات جميعا، وفي هذه الحالة، يكون ترديد "آمنت بالله"، لأن العبد وصل إلى مرحلة الشك، وهي مرحلة تشمل الحد الفاصل بين التفكير الإيجابي والتفكير السلبي، فالتفكير الإيجابي يتمثل في تأمل العقل المسلم في الخلق والكائنات حتى يصل منطقيًا إلى أن الله خالق كل

---

٢٦٠) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة، رقم ٣٦٢

٢٦١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة، رقم ٣٦٠.

هذا. أما التفكير السلبي، فيبدأ بطرح سؤال: من خلق الله تعالى، وما يستتبع ذلك من أسئلة أخرى لا تنتهي، ولا ينتهي جدلها، لماذا ؟ لأن التفكير فيها لن يصل إلى شيء؛ يصل فقط إلى ضلال العقل، وعوار النفس، وتأرجح القلب بين الشك واليقين، ومن ثم الوصول إلى الشك المطلق.

وقد توقع أبو هريرة أن يطرح الناس هذا السؤال:

– فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْعِلْمِ حَتَّى يَقُولُوا هَذَا اللَّهُ خَلَقَنَا فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ". قَالَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ رَجُلٍ فَقَالَ صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَدْ سَأَلَنِي اثْنَانِ وَهَذَا الثَّالِثُ. أَوْ قَالَ سَأَلَنِي وَاحِدٌ وَهَذَا الثَّانِي" [٢٦٢].

الحديث لم يذكر الحل للقضية، بل عرج إلى الجانب المتوقع وهو تساؤل الناس، وقد حدث، فهو يروي الحديث ومعه المتسائل الثاني أو الثالث، في إشارة إلى أن الجدل مستمر، استمرار الإيمان بالله وحده، لا شريك له.

ثانيا: اضطراب سلوك المسلم:

ويعني بمختلف المظاهر السلوكية التي رصدها الرسول ﷺ في تصرفات من حوله، حيث لم يكن يدع الأمور تمرُّ مرَّ الكِرام، بل يغتنم الفرصة ليرشد ويوجه في حوار لطيف، وإرشاد هادئ.

– عن أبي واقد الليثي: أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه [٢٦٣].

---

٢٦٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة، رقم ٣٦٤.
٢٦٣) صحيح البخاري، ج١، كتاب العلم، ص ٤٠، رقم (٦٦).

إننا أمام موقف يحدث كثيرًا في الحياة، وفي تجمعات طلب العلم، موقف يعبر عن طبيعة الشخصيات وكيف تتصرف في الحياة. فقد كان الرسول ﷺ وصحابته الكرام في مجلس علم وإفادة، فأقبل ثلاثة من الناس، أحدهم نظر للحلقة، ثم عاد بظهره وانصرف، والثاني وجد مكانًا صغيرًا (فُرجة) فجلس يستمع، والثالث جلس خلف الحلقة. لم يفوت الرسول الفرصة، فقد كان القوم جالسين ناظرين للموقف، فانتظر الرسول حتى فرغ من حديثه، ثم علّق على الموقف، رابطًا بين التصرف الحادث وبين نظرة الله تعالى، وهو أعلم البشر، لأن الله تعالى يلقي في نفسه، فما ينطق نبينا عن الهوى، شرح الرسول الموقف: فالأول الذي انصرف أعرض عن طلب العلم والخير، فأعرض الله عنه وانصرف. والثاني: أقبل مُحبًّا للعلم والتفقه في الدين، فأقبل الله عليه بالثواب والفهم والرضا، أما الثالث، فهو جلس خلف الحلقة والقوم، لم يستمع ولم يشارك حياءً، وقد استحيا الله منه، فلم ينظر إلى ما فعل.

لم يذكر راوي الحديث أسماء هذه الشخصيات، وهذا من الممكن، نظرًا لأن المجتمع وقتئذ صغير، متعارف، وهذا عائد إلى فهم الراوي للأمر؛ فمناط القضية ليس ذكر الأسماء بل استعراض الموقف وكيفية معالجته، وذكر إرشاد الرسول. أيضًا الرسول ﷺ آثر أن يكون التوجيه عامًّا، ولو شاء لنادى كل فرد من الثلاثة على حدة وأرشده، ولكنه أراد أن يسمع الجالسين، لتتسع مساحة الإفادة، لأن الإعراض والحياء في طلب العلم مرفوض شرعًا.

– عنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ قَالَ "الْمُتَكَبِّرُونَ"[٢٦٤] وَالثَّرْثَارُ هُوَ الْكَثِيرُ الْكَلَامِ وَالْمُتَشَدِّقُ الَّذِي يَتَطَاوَلُ عَلَى النَّاسِ فِي الْكَلَامِ.

٢٦٤) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، رقم ٢١٥٠. (حديث حسن غريب)

يتناول هذا الحديث قضية أخرى إنها قضية الأخلاق بشكل عام، فذوو الأخلاق الطيبة والسلوك الحسن ينالون محبة الرسول وصحبته والقرب منه يوم القيامة. ونلحظ أن الخطاب النبوي كان بصيغة الجمع، لأنه يتوجه إلى عامة المسلمين، فالأخلاق الحسنة أمر مهم وأساس في حياة المسلم. كما أن الأخلاق الحسنة أمر اجتماعي في الأساس، لأنها تصرفات وسلوكيات مع الناس جميعا. هذه البشارة عامة للجميع: نيل حب رسول الله والقرب منه، أي الجنة يوم القيامة، ثم يأتي تخصيص وتحذير، فهو يحذر من ثلاثة: الثرثار، والمتشدق، والمتفيقه، وهي سلوكيات قولية، فالثرثار من يكثر كلامه، فيزعج من حوله، فإنما الصمت والهدوء من سمات المسلم. أما المتشدق فهو الذي يتكلم مبرزًا فصاحته[٢٦٥]، وهذا سلوك متكلف مذموم، فيه تعالٍ، ودليل على ادعاء ما ليس في النفس، وتكبر خفي على من يسمعه. أما الثالث: فهو المتفيقه الذي يتطاول في الكلام، والتطاول قد يكون بادعاء العلم والفهم في أشياء لا علم له فيها، وإنما يريد أن يكون بارزًا ظاهرًا متصدرًا للمجالس.

هناك قواسم مشتركة بين الثلاثة وهي: أنهم يتصفون بصفات قولية مذمومة، وجميعهم يرغب في الشهرة وحب الظهور، وأنهم يكثرون الكلام، كل على شاكلته وما ذهبت إليه نفسه، وأيضًا هذه النوعية من البشر تنفرد دائما بالتصرف وعدم احترام من حولها في آرائهم وشخوصهم، فهي ذات نظرة تنفي الآخرين، وسلوك فيه أنانية، وحط من شأن من حولها. فالتحذير من هؤلاء، هو تحذير من سلوكيات مبغضة من الناس، وسرعان ما يلفظهم الناس من مجالسهم.

– عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ"[٢٦٦].

هذا الحديث يشير إلى تصرف بسيط، ولكنه غاية في التأثير، ويأتي مع نفس المنظومة الأخلاقية التي ذُكِرَت في الحديث السابق، خاصة البُعد القولي، وهو

٢٦٥) القاموس المحيط، مادة شدق، ص ١١٥٨.
٢٦٦) صحيح مسلم، كتاب السلام، رقم (٥٨٢٦).

يتناول تصرفًا يحدث كثيرًا، دون قصد، وهو إذا كان هناك ثلاثة متصاحبين في سفر أو جلسة، فلا يتحدث اثنان من الثلاثة، لأنه هذا يحزنه، والنجوى هي الكلام في السر، والحديث الهامس(٢٦٧) والنجوى تشمل أمورًا عدة: التحدث بصوت هامس بين الاثنين والثالث يراقبهما، أو أن يعتزلا الثالث ويتناجيان، وفي جميع الأحوال يكون الشخص الثالث معزولاً، نائيًا عنهما، فتلعب الظنون بنفسه؛ أن يكونا الاثنان يتحدثان عنه سخرية، أو لا يحبانه، أو لا يقدران عقله وشخصه لذا لا يهتمان بالسماع إليه. وقد نهى الله تعالى عن النجوى عامة: **{إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}**(٢٦٨).

– عَنْ أَبِي الأَحْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ أَمُرُّ بِهِ فَلاَ يَقْرِينِي وَلاَ يُضَيِّفُنِي فَيَمُرُّ بِي أَفَأَجْزِيهِ قَالَ "لاَ، أَقْرِهِ". قَالَ وَرَآنِي رَثَّ الثِّيَابِ فَقَالَ "هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ". قُلْتُ مِنْ كُلِّ الْمَالِ قَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ الإِبِلِ وَالْغَنَمِ. قَالَ "فَلْيُرَ عَلَيْكَ"(٢٦٩) وَمَعْنَى قَوْلِهِ "أَقْرِهِ" أَضِفْهُ وَالْقِرَى هُوَ الضِّيَافَةُ .

هذا الحديث يشير إلى قضيتين سلوكيتين أخرى وهي المعاملة بالمثل مع الناس وحسن المظهر، وعبر هذا البناء الحواري، فالصحابي الجليل يشتكي من أنه يمر برجال لا يكرمونه ولا يقومون بواجب ضيافته، ثم يحدث العكس، أن يمروا هم به، فهل يضيّفهم؟ أجابه الرسول بجواب موجز، وطلب منه أن يكرمه ويستضيفه، لأنه يتعامل بأخلاق الإسلام: الكرم، وعدم المعاملة السيئة بالمثل. ثم ينظر الرسول إليه، فيراه بثياب بالية، قديمة، فيسأله عن أحواله المادية، فيخبره الصحابي أن لديه الإبل والغنم، فيطلب منه الرسول أن يظهر ذلك عليه في ملبسه، فإن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

---

٢٦٧) القاموس المحيط، مادة نجو، ص١٧٢٣.

٢٦٨) سورة المجادلة، الآية (١٠)

٢٦٩) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، رقم ٢١٣٧، (حديث حسن صحيح)

هاتان قضيتان ليستا هامشيتان، إنهما تتصلان بتعامل المسلم مع الناس: في المعاملة بالمثل خاصة واجب الضيافة، فهي من أهم وسائل جذب القلوب وتحبيب النفوس إلى بعضها، وأيضًا في مظهر المسلم، فالنفس البشرية تميل إلى المظهر الحسن، فهذا يساهم في الألفة، والقبول الاجتماعي.

وفي ضوء هذا السياق، يأتي هذا الحديث:

– عَنْ فُضَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ يَعْنِي مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ". قَالَ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنَةً. قَالَ "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ" (٢٧٠).

الرسول ﷺ ينهى عن التكبر عامة، فلن ينال الجنة المتكبرون، الذين يرون أنفسهم أفضل من الآخرين، ولو كان أقل القليل، وهذا يأتي ضمن المنظومة الأخلاقية العامة للإسلام؛ التي تنهى عن التكبر، وتأمر بالتواضع، ومن التكبر الثرثرة والتفيقه والتشدق في القول الذي مرّ بنا فيسأله رجل أنه يعجبه أن يكون حسن المظهر: ثوبًا ونعالاً، فيوضح الرسول ﷺ القضية بأنها لا تتصل بالمظهر بل بالقلب، فما في القلوب ينعكس على التصرفات المتكبرة. وهذا الرأي من الرسول ﷺ يتناغم مع الحديث السابق الذي يأمر فيه الرسول الرجل بالمظهر الحسن.

---

٢٧٠) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، رقم ٢١٣٠، (حديث حسن صحيح غريب) وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْحَدِيثِ " لاَ يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ " . إِنَّمَا مَعْنَاهُ لاَ يُخَلَّدُ فِي النَّارِ . وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ " يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ " . وَقَدْ فَسَّرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ التَّابِعِينَ هَذِهِ الآيَةَ : (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ) . فَقَالَ مَنْ تُخَلِّدُ فِي النَّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ .

ثالثًا: الظنون في النفس المؤمنة:

ويقصد به ما يعتري النفس المؤمنة من ظنون نحو نفسها ونحو الآخرين، وهي ظنون وجدت مجالاً من النقاش مع الرسولﷺ.

– عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ – وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ – قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كثيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَمَا ذَاكَ". قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كثيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً". ثَلاَثَ مَرَّاتٍ (٢٧١).

في نص الحديث حواران: بين حنظلة وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما ثم بين الصحابيين الجليلين والرسول ﷺ، فحنظلة رضي الله عنه يصارح أبا بكر بما في نفسه، وأبو بكر يقرُّ معترفًا بهذا الأمر، وهذا يعكس الحوار الإيماني الذي كان أفراد المجتمع المسلم في عهد الرسول ﷺ وقد غدا الاثنان إلى الرسول الذي استمع لحنظلة، وأقر أن هذا حادث، ولا خوف منه. لأن القلوب تتبدل، إذا سمعت الحكمة والموعظة الدينية تحلّق في آفاق الإيمان العليا، وإذا عادت إلى أمور الدنيا: زوجة، وولد، ومال، وتعاملات الناس، فإنها تنتكس إلى الأرض. والمؤمن إنسان في حاجة للزوجة والولد والمال والناس، فلا مفر من المواءمة بين الحالتين: سماع الموعظة والسمو الإيماني، وبين معافسة الدنيا ومشاغلها. إنها ساعة وساعة، وحال وحال.

---

٢٧١) صحيح مسلم، كتاب التوبة، رقم ٧١٤٢

– عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، أَنَّ نَاسًا، مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ قَالَ "مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ شَيْئًا هُوَ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ "(٢٧٢) وَالْمَعْنَى فِيهِ وَاحِدٌ يَقُولُ لَنْ أَحْبِسَهُ عَنْكُمْ.

هذا الحديث يتعلق بظنون النفس المؤمنة نحو العطاء المالي، فقد طلب جماعة من الأنصار المال من الرسول ﷺ وهو من مال بيت المسلمين، ويبدو أن النهم قد أصابهم، فاستزادوا العطاء من الرسول، والرسول يعطي، فلما وجد الطمع، أرشدهم إلى أن الأمر يتعلق بالنفس، وبنظرتهم له، وبما عنده، فلو كان لديه المزيد لأعطاهم، حتى لا يظنوا أن الرسول يحبس المال عنهم، ولا يأخذ الشيطان حظا من نفوسهم، فيظنون ما لا يليق بالرسول ﷺ، ثم ينصحهم بالصبر والتعفف والاستغناء، فمن تحلى بهذه القيم، فإن الله سيكون معه، ونلحظ أن الأفعال المستخدمة: يستغن، يستعفف، يتصبر، فالتاء تفيد هنا الإيجابية الشخصية، حيث يحرص الفرد على التحلي بهذه القيم، ويتكلفها في نفسه، وفي هذه الحالة، فإن الله تعالى سيغرسها في أعماق المؤمن، لأن القيمة تنتقل من حالة التطبع إلى حالة الطبيعة. ونلاحظ أيضًا أنها قيم نفسية، حاكمة لشهوات النفس التي تنعكس في سلوكيات الطمع والأثرة والأنانية، وتبذر في القلوب الظنون والشكوك حول الناس.

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ مَا عَابَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَعَامًا قَطُّ كَانَ إِذَا اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ وَإِلاَّ تَرَكَهُ (٢٧٣).

هذا الحديث بسيط يتصل بسلوك الرسول ﷺ ذاته، ولكنه يتناول قضية لا تخص الرسول كسلوك شخصي، وإنما هي تتصل بسلوكيات اجتماعية في أمور الطعام. فإن الرسول ﷺ كان يأكل ما يحب، فإذا عافت نفسه طعامًا ما، فهو لا يأكل منه، بل يتركه. إنه تصرف محمود، يشتمل على الترك دون تعليق لفظي قد يحزن صانع الطعام ومقدمه، ويجعل الآخرين يبتعدون عن الطعام نفسه. فهذا

٢٧٢) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، رقم ٢١٥٦، (حديث حسن صحيح)
٢٧٣) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، رقم ٢١٦٣. (حديث حسن صحيح)

الحدث يتناول احترام البعد النفسي لمن يقدم الطعام ويبذله، ويحترم خصوصيات الشعوب في أصناف الأطعمة المختلفة، مادامت لا تتعارض مع ما أمر به الشرع الإسلامي في الطعام الحلال.

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ اَعْتَمَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَوَجَدَ الصِّبْيَةَ قَدْ نَامُوا فَأَتَاهُ أَهْلُهُ بِطَعَامِهِ فَحَلَفَ لاَ يَأْكُلُ مِنْ أَجْلِ صِبْيَتِهِ ثُمَّ بَدَا لَهُ فَأَكَلَ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِهَا وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ" (٢٧٤).

إنه موقف إنساني، متكرر في حياتنا، أن لا يأكل الأب الطعام المقدم إليه، مؤثرًا به أبناءه. وقد فعلها أحد الصحابة، ولكنه أسبق فعله بحلف، فلما شعر بالجوع، أكل، مخالفًا يمينه. واضطربت نفسه، فغدا إلى الرسول يستشيره في الأيمان التي حلفها. وقد فهم الرسول الأمر، وقدّر تنازع العاطفة الأبوة، ورغبة النفس في أعماق الرجل، فلم يعلق على فعلة الرجل، فهي من باب المباحات، ولا شيء عليه، وإنما أجاب عن استفسار الرجل، فمن الممكن أن يرجع الشخص عن يمينه، لما هو خير، ويكفر عن هذه اليمين بالكفارات الشرعية وهي على الترتيب: عتق رقبة أو كسوة عشرة مساكين، أو الإطعام لعشرة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام (٢٧٥)، مصداقًا للآية الكريمة: { **فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } (٢٧٦).



٢٧٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من حلف يمينا..، رقم ٤٣٦٠.
٢٧٥) فقه السنة، ج٣، ص٨٣، وهي على الترتيب من الأعلى إلى الأدنى.
٢٧٦) سورة المائدة، الآية (٨٩).



الخاتمة

يمكن أن نصل في الختام إلى عدة نتائج مهمة:

- إن الحوار بوصفه منهجًا وسلوكًا وطريقة للتفكير؛ أساسٌ في وسائل الدعوة الإسلامية، بشكل عام، وفي دعوة الرسول محمد ﷺ مع الناس بشكل خاص.
- تكاملت شخصية النبي ﷺ لُغةً وخُلقًا ورسالةً وأدبًا، فكان نعم المحاور والداعية والمبلغ للرسالة الإسلامية.
- إن الحوار منهج إنساني إسلامي صميم.
- كلما اتسعت دائرة المتحاورين دلَّتْ على عمق الرسالة وسموها ونبل حاملها.
- إن الحوار في السيرة النبوية لم يقتصر على شكل واحد، بل تعددت أشكاله وتباينت اتجاهاته، حسب الموقف والشخصية والمكان والزمان.
- من أشكال الحوار التي يمكن رصدها في الأحاديث النبوية: الشكل الاستفهامي والحدث والتعليق، والقصة، واستخدام الجوارح، وقد تتداخل هذه الأشكال فيما بينها.
- إن الرسول محمد ﷺ كان مدرسة حوارية متحركة، لا يحدها جدار ولا زمن، يتحاور مع جميع الفئات بلا استثناء.
- إن حوارات الرسول شملت كل من حوله: المشركين، وأهل الكتاب، والبسطاء، وحديثي العهد، وجميع المسلمين في تقلباتهم النفسية.

هذا وبالله التوفيق ومنه السداد،،،،،

المصادر والمراجع

- **أولاً : القرآن الكريم**، كلام ربِّ العالمين.

- **ثانيًا : مصادر الأحاديث الشريفة والسيرة العطرة :**

- البداية والنهاية، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار المعارف، بيروت، ط٣، ١٩٨٠.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، الإمام شمس الدين بن أبي بكر، بن قيم الجَوزيَة، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- سنن ابن ماجه، الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: عيسى البابي الحلبي، القاهرة، دون طبعة، دون تاريخ.
- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي نشر موقع (نداء الإيمان) www.al-eman.com ، مكتبة التراث الإسلامي.
- السيرة النبوية، ابن هشام (أبو محمد عبد الملك ابن هشام) نشر موقع (نداء الإيمان) www.al-eman.com مكتبة التراث الإسلامي.
- شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، الإمام ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٧م.
- صحيح البخاري، المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق وشرح وترقيم ومراجعة: محب الدين الخطيب، محمد فؤاد عبد الباقي، وقصي محب الدين الخطيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق وشرح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م.
- مختصر الشمائل المحمدية، للإمام أبي عيسى محمد بن سورة الترمذي، اختصره وحققه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط٤، ١٤١٣هـ.
- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن على بن شعيب بن على بن سنان بن البحر الخراساني، نشر موقع (نداء الإيمان) www.al-eman.com ، مكتبة التراث الإسلامي.
- سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن برهام الدارمي السمرقندي كتاب المقدمة، نشر موقع(نداء الإيمان) www.al-eman.com، مكتبة التراث الإسلامي.
- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيح محمد الخضري، (مراجعة وتخريج إبراهمي محمد علي)، دار الجيل ببيروت ودار عمار بعمان،ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م

▪ ثالثًا : المــراجــع

- بنية الجملة العربية بين النظرية والتطبيق، المنصف عاشور، سلسلة اللسانيات، منشورات كلية الآداب (منوبة)، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني المصري، منشور على موقع www.al-eman.com.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، الدار العلمية، بيروت، د ت.
- أساس البلاغة، الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ .
- أساس البلاغة، الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ.
- أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تقديم وشرح: محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م

- القاموس المحيط ، الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
- المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة أولى، ١٩٧٩م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٣، دون تاريخ.
- بلاغة الاصطلاحية، د. عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، القاهرة، دون طبعة، ١٩٨٩م.
- بيان والتبيين، الجاحظ، أبو عثمان بن بحر، نشر: موقع المكتبة الإسلامية قسم التراث الإسلامي، www.al-eman.com.
- تفسير القرآن العظيم، (تفسير ابن كثير)، للإمام ابن الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، المكتب الجامعي الحديث، الأسكندرية، مصر، دون طبعة، دون تاريخ.
- تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، مج٥، ص١٠٠.
- جامع البيان في أحكام القرآن (تفسير الطبري)، الطبري، أبو جعفر محمد ابن جرير، دار الحديث، القاهرة، دون طبعة، دون تاريخ.
- جواهر البلاغة في المعاني والبديع، السيد أحمد الهامشي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٦، دون تاريخ.
- جلاء الإفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن قيم الجوزية، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م
- خاتم النبيين، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ج١، ص٢٣١.
- دائرة المعارف السيكولوجية، عبد اللطيف شرارة، دار صادر،ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٤م، ج١، ص٤٠٣، ٤٠٤.
- دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٩٧١.

- سيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، محمد فريد وجدي، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٨٦.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، عبد الله بن عقيل، دار التراث، القاهرة، ط٢٠، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
- الشرق المتخيل: رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي، تييري هنتش، ترجمة: غازي برو وخليل أحمد خليل، منشورات: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥.
- الشفاء، القاضي عياض، طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، دون تاريخ.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فرسي بن زكريا، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، يوليو، ٢٠٠٣م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.
- العبارة والإشارة: دراسة في نظرية الاتصال، د. محمد العبد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.
- عبقرية محمد، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٦٩م.
- العصر الجاهلي، د.شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٦٠
- فقه السنة، الشيخ سيد سابق، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
- فقه السيرة، محمد الغزالي، راجع أحاديثها الشيخ محمد ناصر الألباني، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٧، ص١٩٧٦م.
- فن القصة القصيرة، د. عبد الحميد يونس، دار المعرفة، القاهرة.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، دون تاريخ.
- قاموس السرديات، جيرالد برنس، ترجمة: السيد إمام، دار ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠٣م،
- قصة الحضارة، ول وايرايريل ديورانت، المجلد السابع، (حياة اليونان)، دار الجيل، بيروت، دون طبعة، ١٤٠٨هـ ـ، ١٩٨٨م.

- قيادة الذات وإدارتها، نسيبة عبد العزيز المطوع، سلسلة رؤية تربوية، على نفقة المؤلفة، الكويت، ط٢، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
- القيامة الصغرى، د. عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، تاريخ العلامة ابن خدلون،عبد الرحمن بن خلدون، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٧م، ط٣.
- –كشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة،١٣٨٥هـ، ١٩٦٦م.
- لسان العرب، ابن منظور، إعداد: يوسف خياط، نديم مرعشلي، دار صادر، ودار لسان العرب، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ.
- ما بعد المركزية الأوروبية، بيتر جران، ترجمة: عاطف أحمد، إبراهيم فتحي، محمود ماجد. نشر: المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.
- المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء عليهم السلام، الجزء الأول، اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق الشريعة الإسلامية، الديوان الأميري بالكويت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، دار بيروت، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م.
- معجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دون طبعة، دون تاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج١، ص٥٠١.
- المعجم المفصل في علوم البلاغة، د. إنعام نوار عكاوي، مراجعة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ببيروت، ط١، ١٩٩٢م.
- موسوعة العلوم الاجتماعية، تحرير: ميشيل مان، ترجمة: د. عادل مختار الهواري، د. سعد عبد العزيز مصلوح، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤١٤هـ
- موسوعة العلوم السياسية، تحرير: د. محمد محمود ربيع، د. إسماعيل صبري مقلد، جامعة الكويت، ١٩٩٣، ١٩٩٤م، ج١، ص٤٨٢.

- موسوعة علم النفس، رولان دورون، فرانسواز بارو، الطبعة الأولى، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٣٣٦.
- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري، دار الجيل ببيروت ودار عمار بعمّان، ط١، ١٤٠٤هـ.

■ رابعًا : المجلات والدوريات العلمية :

- التفاؤل والتشاؤم في الحديث النبوي (دراسة موضوعية)، د. أمين محمد القضاة، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد (٥٢)، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م
- السياق وأثره في دلالات الألفاظ (دراسة أصولية)، د. عبد المجيد محمد السوسوه، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد (٧٤)، رمضان ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

المؤلف في سطور

- د.مصطفى عطية جمعة
- روائي ومسرحي وناقد وباحث أكاديمي
- عضو اتحاد كتاب مصر، ونادي القصة بالقاهرة.

- جوائز دولية :

- جائزة مختبر السرديات بالأسكندرية،عن بحث "اختراق الوعي في سرد محمد حافظ رجب"، ٢٠١١م.
- جائزة اتحاد كتاب مصر (علاء الدين وحيد في النقد الأدبي) عن كتاب اللحمة والسداة، ٢٠١١م.
- جائزة مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية، في أدب الطفل، عن رواية المحطة الفضائية الدولية، ومسرحية سفينة العطش، ٢٠١١م.
- جائزة المركز الأول في النقد الأدبي، مسابقة إحسان عبد القدوس، القاهرة ٢٠٠٩م.
- الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٩م.
- الجائزة الثالثة في النقد الأدبي، جائزة الشارقة، ٢٠٠٠ م.
- الجائزة الثانية في الرواية، نادي القصة، القاهرة، ٢٠٠١ م.
- الجائزة الثانية، لجنة العلوم السياسية، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٩م، بحث مصر والعولمة.
- الجائزة الثالثة، مركز الخليج للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة / البحرين، ٢٠٠٢ م، بحث مؤشرات التطور الديمقراطي في البحرين.
- أربع جوائز عن بحوث فكرية في مسابقة الكويت الدولية الإسلامية،
- ثلاث جوائز عن قصص قصيرة في مسابقة الكويت الدولية الإسلامية
- جائزة (المركز الثاني) في مسابقة الشخصيات الخيرية في الكويت، ٢٠٠٧م.

- صدر له :

١- وجوه للحياة، مجموعة قصصية، نصوص ٩٠، القاهرة، ١٩٩٧م

٢- نثيرات الذاكرة، الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، القاهرة / الكويت، ١٩٩٩م

٣- دلالة الزمن في السرد الروائي، نقد، جائزة النقد الأدبي، الشارقة، ٢٠٠١م

٤- شرنقة الحلم الأصفر، رواية، الجائزة الثانية في الرواية عن نادي القصة المصري، ٢٠٠٢، ومركز الحضارة العربية،٢٠٠٣م.

٥- طفح القيح، مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٦- أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، نقد، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦

٧- أمطار رمادية، مسرحية، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ٢٠٠٧م.

٨- هيكل سليمان (إسلاميات)، دار الفاروق للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٩- ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠.

١٠- نتوءات قوس قزح، رواية، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

١١- اللحمة والسداة، نقد أدبي، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠

١٢- الرحمة المهداة، خلق الرحمة في شخصية الرسول (ص)، إسلاميات، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠١١ م.

١٣- مقيم شعائر النظام، مسرحيات، دار الأدهم للنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.

١٤- قطر الندى، مجموعة قصصية، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٣م.

١٥- الظلال والأصداء، نقد أدبي، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٤م.

١٦- الحوار في السيرة النبوية، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٤م.

١٧- سفينة العطش، مسرحية للأطفال، مكتب التربية العربي، الرياض.

١٨- المحطة الفضائية الدولية، رواية للأطفال، مكتب التربية العربي، الرياض.

١٩- رواد فضاء الغد، روايتان للأطفال، نشر: منتدى الأدب الإسلامي، المركز العالمي للوسطية، الكويت ٢٠١٤م.

٢٠- لكل جواب قصة ، مسرحيات للأطفال، نشر: منتدى الأدب الإسلامي، المركز العالمي للوسطية، الكويت ٢٠١٤م.

- تحت الطبع :

- الوعي والسرد، نقد أدبي، سلسلة الكتاب الفضي، نادي القصة، القاهرة.
- الفصحى والعامية والإبداع الشعبي : قضايا وجماليات.
- جامع الأمة، الحسن بن علي، رواية للأطفال، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الإسلام والتنمية المستدامة، (إسلاميات).
- البنية والأسلوب، دراسات أدبية ونقدية.

- البريد الإلكتروني : mostafa_ateia123@yahoo.com

mostafa_ateia1234@hotmail.com



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net